روايات عبير

فيوليت وينسبير

الشريدة

٢١

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 21

الشريدة

«تحركت عيناها البنفسجيتان بسرعة متجولة على وجهه وبرغم انها لم تشعر بانفراجة ضوء مفاجئة تبدد العتمة التي دخلت فيها منذ فقدت ذاكرتها ، الاّ انها شعرت فجأة بانها متأكدة من صحة ماقاله آفري ، فمنذ لقائها اول مرّة في تشيز ، ربطت في عقلها الباطن بين روبرت وبين ماتحاول الفرار منه. وكان يخيفها لأنها كانت تعلم طوال الوقت، ان شيئاً ما فيه قد يهزّ ذاكرتها ويعيدها من المكان المسدود الذي دخلت فيه، او الملجأ الذي لجأت اليه لتهرب من ذكريات شيء ما تجهله» .

هي : ممثلة مسرحية فقدت ذاكرتها.

هو : ممثل مسرحي معروف ، ساخر وحاد الطباع.

وبينهما عائلة كبيرة تحمل اسم منطقة بكاملها ، لكن «الشريدة» هل تمنح قلبها للطبيب الذي أنقذها ام للممثل الذي شك في حقيقة امرها؟

١ ـ ذاكرة قاحلة

«يا عزيزي آفري لا تقل إنك خدعت بهذه الفتاة الغريبة وقصتها غير المعقولة عن ذاكرتها المفقودة! يا إلهي! إنك عادة أول من يشك في دوافع أكثر السيدات براءة».

انعكست الدهشة والاستخفاف في صوت روبرت تشيز.

وكان الدكتور آفري الذي مارس مهنته بنجاح كبير في شارع هارلي وأصبح يعمل حالياً في بعض الأبحاث الكيميائية بمنزله في ديفون، يتميّز بوجه جاد من تلك الوجوه التي تجعل صاحبها يبدو أكبر سناً وأكثر صرامة عما هو عليه في الواقع ـ ولكنه كان من الرجال الذين لا يتصرفون باندفاع وتهور، بل يتروّون ويدرسون ماهم مقدمون عليه. ومن هنا كانت دهشة روبرت من الطريقة التي استقبل بها آفري هذه الفتاة في منزله بدون تشكك في حقيقتها.

فجأة وبلا مقدمات بدا الضيق على آفري الذي سحب الغليون من فمه بحركة سريعة فتناثر الرماد منه، وبادر ابن عمه قائلاً:

« بوب مَن المفروض أن يكون الطبيب في هذه العائلة. أنا أم أنت؟»

نظر روبرت إلى طرف سيكارته المشتعل وابتسم تلك الابتسامة الساخرة ـ ابتسامة الممثل التي يتميز بها ـ مما أثار سخرية آفري هو الآخر وذكّره بالعدد الكبير من السيدات اللواتي سحرتهن هذه الابتسامة الغامضة المثيرة وأطارت صوابهن وخاصة عندما كانت تنطلق عن خشبة مسرح لندن.

قال روبرت :

«إن مشكلة العلوم الطبية الحديثة هي انها بدلا من الاحتفاظ لنفسها بأسرارها كما كان يحدث في الماضي تسارع بنشرها في كتب سميكة تغري الفتيات الصغيرات بقراءتها، والآن انظر.»

طعن روبرت الهواء بسيكارته وهي حركة مولع بها عندما ينطلق في الخطابة:

«إني أستطيع البحث عن أعراض فقدان الذاكرة في أحد تلك الكتب الكبيرة المثيرة ثم أعود إليك وأردد تلك الأعراض بدقة فتقيس نبضي فتجده سريعاً جداً لأني كنت أكذب عليك. فتقول لنفسك يا للمسكين إنه يعاني من فقدان الذاكرة!»

«هل سأقول ذلك؟»

ابتسم آفري ابتسامة عريضة بددت كل صرامته وبدا من الواضح أنه مازال في منتصف الثلاثينات وأنه لا يكبر روبرت إلا بسنة وبضعة أشهر.

«أخبرني يا بوب لماذا تتحامل على هذه الفتاة الصغيرة المسكينة مع أنها بلا شك تعاني من فقدان الذاكرة؟»

أخذ روبرت الذي لم تثنه ابتسامة آفري الساخرة يفكر في الموضوع وهو مسترخ برشاقة على مكتب ابن عمه الكبير حيث تتناثر بشكل غير منظم أوراق مختلفة عليها رموز كيميائية، وسماعة آفري الطبية ملقاة كالثعبان. تعجب روبرت من هذه الفوضى التي تتناقض تماماً مع النظام الدقيق الذي يفرضه آفري على عواطفه.

التقط روبرت جزءاً من حذاء نسائي لامع وأخذ يقلبه بين أصابعه الطويلة. كان مزيناً بفصوص دقيقة من اللؤلؤ الصناعي وقطع صغيرة من الماس المزيف تلمع بطريقة تذكر المرء بالمسرح.تكلّم روبرت بنشاط مفاجىء :

«حسناً.أولاً: لديها الجرأة أن تقول إنها لا تتذكر إلا شيئاً واحداً هو اسمها وإن اسمها ليجيا - يا آلهي - ليجيا !إنّ آخر مرة صادفني هذا الاسم عندما كنت تلميذاً في المدرسة وكنا نقرأ قصة كوفاديس . ثانياً: جاءت في منتصف الليل وهي تهيم على وجهها وقادتها قدماها الى منزلك. فلماذا منزلك بالتحديد يا آفري إلا

كانت تعلم جيداً أن هنا يسكن طبيب تستطيع أن تكرر على مسامعه الأعراض التي حفظتها جيداً؟ ثالثاً...»

قال وهو يدير قطعة الحذاء بين أصابعه:

«حضرت وهي ترتدي حذاء سهرة غالي الثمن نسبياً وفي الوقت نفسه ترتدي حلّة من قماش رخيص يعلق في الشارع. هل تعرف ماذا أظن؟»

تغيّرت تعبيرات وجه روبرت واختفت الابتسامة من عينيه وانعكس طبعه المتشائم بشدة على ملامحه النحيلة.

«إني أظن أنها واحدة من أولئك الفتيات الرخيصات. وهي تعمل كمرافقة أو كخادمة لاحدى السيدات وخرجت تبحث لنفسها عن مغامرة أو تجربة مثيرة، وأن هذا الشبك - يخص السيدة التي كانت تعمل لديها. كما أن جردا ، تقول إن مقاس حذاء السهرة أكبر كثيراً من قدميها وقد تمّ حشو مقدمته بالورق».

عند ذكر اسم سكرتيرته تقطب جبين آفري وقال:

«من المنتظر أن تتحامل جردا على الفتاة طالما أنك كنت متحاملا عليها»

رد روبرت ببراءة:

«ولماذا؟ قابلت جردا الفتاة بينما لم أقابلها أنا ولم أسمع بوجودها حتى حضرت إلى هنا هذا المساء.»

قال آفري بضيق:

«إنك تعلم جيداً لماذا - إن جردا مفتونة بك لدرجة أنها لاتستطيع أن تنطق بحكم سليم.»

«جردا الطموحه مفتونة بي؟»

بدا على روبرت الاهتمام للحظة ثم قال:

«يا خفة عقل السيدات ! ألا يستطيع الطب أن يفعل شيئاً يا عزيزي فيخترع نوعاً من الأقراص تجعل النساء يقعن في حب الرجال الطيبين العقلاء بدلا من الأوغاد أمثالي» .

قال آفري باقتضاب:

«لنعد الى حالة فقدان الذاكرة التي لدينا.»

«والفتاة لا تدّعي المرض يا بوب . أجريت عليها كشفاً دقيقاً وأنا لست دجالا

ريفياً. الفتاة لا تعرف حقيقة من هي ولا من أين جاءت ولماذا اختارت باب بيتي لتنهار أمامه الساعة العاشرة والنصف مساء وليس في منتصف الليل كما ذكرت.»

ابتسم آفري قليلا لأن روبرت كان ممثلا ويميل دائماً للمبالغة ثم استمر قائلا:

«إني أعترف أن اختيارها باب منزلي وهو منزل طبيب ، حيرني. ولكن كل ما استطاعت أن تقدمه كتفسير هو أنها وجدت نفسها فجأة وحيدة في المستنقعات ثم رأت الأضواء تشع من هذا المنزل كالمنار ـ وأنت تعلم كيف تحب جدّتنا أن تفتح الستائر عن آخرها ـ فاتجهت مباشرة إلى مصدر الضوء».

فكر آفري كيف أتت مباشرة إليهم تلك الزائرة الغريبة وكيف كانت تبدو ليلة الأمس بعينيها الواسعتين بلون البنفسج البري ووجهها الشاحب الشديد البياض ويديها الصغيرتين المذعورتين وهما تتعلقان بكتفيه عندما حملها الى داخل المنزل.

وجدتها إلن الطباخة لدى عودتها من اجتماع كنيسة في القرية وهي تجلس على عتبة الباب الخارجية وتدفن رأسها بين يديها. ولم تستطع أن تحصل من الفتاة على أي إجابة مفهومة فسارعت اليه في المكتبة وهي تتفجر قائلة:

«يادكتور هناك إنسانة غريبة تجلس على عتبة منزلك ويحسن أن تحضر بسرعة إذ يبدو أنها ستدخل في غيبوبة.»

إلا أن الغيبوبة لم تحدث ولكن آفري شعر منذ حمل الفتاة إلى داخل المنزل أن هناك شيئاً ما خطيراً في حالتها. لذلك تضايق أن يسمع روبرت وهو يتهمها مع انه لم يقابلها بعد. وضايقه أكثر أن جردا زودت ابن عمه بتفاصيل عن الفتاة لحظة وصوله من لندن لقضاء نهاية الأسبوع معهم مستغلة عدم وجود آفري في المنزل ذلك الوقت.

«النساء شياطين! هكذا صرخ آفري ـ إنهن مستعدات دائماً لاتهام ونقد بنات جنسهن».

تساءل روبرت :

«هل سنعود للكلام عن جردا ؟»

قال آفري وهو يبحث عن كيس التبغ بين الأشياء المتناثرة على المكتب :

«نعم سأعود للكلام عن جردا . ماذا قالت عن الفتاة؟ طبعا أشياء لا تشرفها على ما أظن؟»

«قالت إنها ليست جميلة على الاطلاق ولكن من الواضح أن لديها خطة للأيقاع بك».

سأل آفري بتهكم:

«وماذا أيضا؟»

«قالت أيضاً إن الفتاة لم تكن تملك فلساً واحداً في جيوبها وأنها فزعت عندما سمعت أنك توجهت الى البوليس في برنشام للسؤال عما إذا كان أحد أبلغ عنها بأوصافها».

قال آفري وهو يشعل غليونه ويحملق خلال الدخان:

«فهمت ـ إن أي فتاة لا تحب أن تتعامل مع البوليس . وهذا سبب فزعها. ولكن كان من الضروري طبعاً أن أذهب وأسأل. أعطيتهم أوصافها وسيقومون بتوزيعها بالطرق العادية حتى اذا أبلغ أحدهم عن فقدها سنعلم بذلك فوراً.»

ردّ روبرت باقتضاب :

«لن يفعل أحد.»

«انظر يا بوب .»

إعتدل آفري في جلسته وبنظرة جامدة أضاف :

«ليس من حقك أن تصدر أحكاماً خاطئة وحاقدة على شخص لم تقابله أبداً. هذا ظلم صارخ.»

«إنك مأخوذ بتلك الفتاة الصغيرة ـ أليس كذلك يا صديقي ؟»

نظر روبرت الى ابن عمه باهتمام وحب استطلاع مفاجيء ـ

كان آفري رجلا واسع الثراء ، اذ ورث أموالا طائلة عن والدته ووالده الذي ترك له ممتلكات واسعة من عائلة تشيز ورغم أن عمله في شارع هارلي الأنيق جعله يحتك بكثير من السيدات الجميلات اللواتي حاولن إيقاعه في شباكهن إلا أنه استطاع أن يحافظ على نفسه وعلى ثرائه في مجتمع لندن الخطير. ولكن روبرت لم يعجبه ميل ابن عمه الواضح الى هذه الفتاة الماكرة ذات

الوجه الأبيض بقصتها المختلقة عن فقدان الذاكرة.

وحتى جردا ميتلاند، التي كانت رائعة الجمال وليس لديها مبرر للغيرة من النساء الأخريات الأقل جمالا، أخذت موقفاً عدائياً صريحاً من الفتاة اذ أخبرت روبرت أنها فتاة عادية جداً، شعرها أسود بدون أية تجعيدة، وجسمها كجسم صبي.

سأل روبرت:

«متى ساقابل الصغيرة ليجيا ، أم لن أقابلها؟»

ابتسم أفري وقال :

«ستراها على العشاء، إنها تستريح اليوم في السرير ولكني وافقت على أن تنزل للعشاء»

فحص أفري وجه ابن عمه الساخر ثم قال محذراً:

«ولكني لا أريد ألا عيبك يا بوب ، إذا ضايقت الطفلة سنتشاجر أنا وانت.»

«الطفلة ؟»

أخذ روبرت يحرك قطعة الحذاء العاكسة للضوء وابتسم ابتسامة ساخرة قائلا:

«هذه الحلية لا يمكن أن تعجب فتاة صغيرة. لذلك فإن افتراضي أن الحذاء لا يخصها افتراض صحيح. أليس كذلك؟»

«من الممكن.»

اعترف أفري باستياء واضح.

استمر أفري يقول:

«بالتأكيد لا. إن هذا الحذاء مبهرج أكثر من اللازم ولكنه غال. فلنتفحص الأمر، صاحبته يمكن أن تكون سيدة في منتصف العمر يصعب التفاهم أو العمل معها. واحدة من أولئك السيدات العدوانيات الكثيرات المطالب، إنك تعرف ذلك النوع ، سمينة ولديها وقت فراغ كبير لا تستطيع استغلاله وتحقد على أي شابة صغيرة . ولابد أن فتاتنا قررت أن تتركها وتهرب.»

تحول وجه أفري الأشقر الجاد الى الضحك.

«اسكت ! إنك تتكلم كمخبر على المسرح ولكن الحقيقة البسيطة هي أن تلك

الفتاة فقدت الذاكرة وأنا أنوي أن أتولى أمرها حتى يحضر أهلها لأخذها أو تتذكر من هي. ولا يهمني في قليل أو كثير من هي صاحبة الحذاء. واجبي الأول كطبيب هو أن أوفر لتلك الفتاة الرعاية الطبية اللازمة .»

أجاب روبرت :

«ماذا إذاً لا ترسلها الى المستشفى إذا كانت قصتها صادقة؟»

«لأنها خائفة حتى بدون أن تذهب الى المستشفى والذهاب الى المستشفى سيقنعها بأنها مريضة، ولكنها ليست مريضة، إنها تهرب من شيء أو من شخص . وعندما ينتهي خوفها ستعود إليها ذاكرتها. وقد يحدث هذا في أي وقت ـ اليوم أو غداً أو ربما بعد أسبوع.»

«وقد لا تتذكر أبداً.»

ثم أضاف روبرت وهو يلقي الحذاء على المكتب :

«إنها مغامرتك يا أفري ومن يبحث عن المغامرات يدفع الثمن كما يقول المثل.»

أخذ روبرت يحك أثر جرح قديم في أنفه وابتسم ببطء وسخرية وهو يقول لابن عمه :

«ولكن يبدو أنك تفكر في المثل الآخر القديم الذي يقول إن النصيحة شيء لا يحتاجه العقلاء، ولا يقبله الأغبياء.»

رد أفري وقد عاد اليه هدوءه القديم :

«ربما»

كانت الثريات الفينيسية الباهتة تتلألأ في غرفة الطعام، وينعكس ضوؤها على المائدة الطويلة وقد وضع عليها إناء فضي محفور تخرج منه أوراق نبات السرخس الأخضر ، وقتد على مفرش المائدة الفينيسي المصنوع من الدانتيل الدقيق الصنع. أما الصيني فكان من أفخم الأنواع.»

كانت عائلة تشيز تعرف كل هذه الفخامة لأنها تربت فيها. أما جردا ميتلاند فكانت لا تزال تتمتع بكل ما يحيط بها من ترف ورفاهية. كانت عائلتها أكثر تواضعاً بالمقارنة مع عائلة تشيز . فقد كان والدها يعمل كاتباً في مكتب بريد فينشلي حيث كانت تقطن. وكانت أمها تعمل بائعة في أحد المحلات الراقية في منطقه فينسبري بارك . وحصلت جردا على عملها كسكرتيرة خاصة

«يا آفري أرجوك.»

اتجهت جردا بلهفة الى رئيسها:

«هل تسمح لي أن أذهب ؟ سأعمل يوم السبت إذا كان هناك عمل خاص تحتاج له.»

ردّ آفري بدون اكتراث للآراء الأخرى قائلا :

«لماذا لا تذهبين الى الكوخ يوم السبت ؟»

«سأنتقل الى الكوخ في ذلك اليوم.»

رفع روبرت كأسه وابتسم فجأة ابتسامته الساحرة :

«هيا يا آفري . امنح الفتاة يوم راحة من واجباتها الشاقة وأعدك أني سأعيدها لك في حالة طيبة.»

ابتسم آفري رغماً عنه وقال :

««حسناً! إنها لك للغد فقط.»

قال روبرت :

«ها أنت يا جردا ، إنك لي غداً !»

قالت وهي تبتسم ابتسامة ساحرة:

«اشكرك يا آفري.»

قال وهو يضحك :

«يافتاتي العزيزة لا تشكريني ـ إني ألقيك للأسود.»

«مازلنا نعود للحديث عن الأعمال الرومانية هذه الليلة.»

قال روبرت بصوته الناعم كالحرير وقد استقرت نظرته مرة أخرى على الفتاة ذات الوجه الأبيض والعينين البنفسجيتين بجانبه، وأخذ يرقب رأسها المنحني ومنظر وجهها الجانبي المحفور بحدة ثم أضاءت عيناه بسرور قاس عندما رأى الدموع تنحدر من عينيها على خديها الأبيضين وفي لحظة دفعت كرسيها الى الوراء، وهرعت الى الخارج ـ نهض آفري وهو يشتم وركض خلفها بخطواته القوية السريعة ولحق بها وهي تجتاز البهو.

قالت جردا وهي تبتسم قليلا :

«هل أنت سعيد الآن يا روبرت ؟»

ورفع حاجبه متسائلا :

«ماذا فعلت ؟»

نظرت اليه:

«ماذا تعني، مسي.؟»

رفع كوبه الملآن وأخذ يتفحص جماله الرقيق وكيف يتلألأ الضوء على الزجاج

«هل تجعلك ترغبين في البكاء عندما أنظر اليك يا جردا؟»

قالت وهي سعيدة بنفسها :

«عندما لا تنظر إليّ بالطريقة التي كنت تنظر بها لهذه البائسة الصغيرة. لو فعلت ذلك في أي وقت من الجائز أن أنفجر باكية.»

«سنذهب الى غرفة الصالون لأتكلم مع جدتك ـ عندما يعود أفري سيكون ثائراً لأنك طردت حيوانه المدلل الشارد ـ هل تعلم ذلك؟»

«بالطبع يا جردا.»

تقدم روبرت وراءها وأخذ ذراعها الناعمة في يده :

«هل أفري مفتون حقيقة بهذه الفتاة؟»

قالت وهي تضحك ضحكة خبيثة :

«أظن أن تلك الفتاة الغريبة الصغيرة تثير فيه شعوراً بالرغبة في حمايتها...انه رجل مسكين»

«انه ليس بمسكين.»

قال روبرت ذلك بأسلوب فظ. ثم جذب بخشونة مفاجئة جردا إليه يتحسس ذراعيها الناعمتين قائلا :

«كيف يشعر الانسان بالرغبة في حماية شخص ما ؟»

وضحك في عينيها قائلا :

«لماذا لا تثيرين فيّ هذه المشاعر يا جميلتي ؟»

تظاهرت بالغضب وهي تجذب نفسها بعيداً عنه :

«روبرت لا تعاملني كأني فتاة صغيرة.»

خرجت من الغرفة تتبعها ضحكة روبرت الوقحة التي لم تتوقف إلا بعد أن

أغلقت بقوة أبواب غرفة الاستقبال.

«إنه يظن أني أتظاهر أليس كذلك ؟»

وقفت ليجيا بجانب المكتب في غرفة المكتبة وهي تمسح دموعها بالمنديل الكبير الذي أعطاه اليها آفري . وعندما رأت الكدر يلوح على وجه آفري قالت بشعور مفاجيء بالكرامة :

«لا أظن أنه يجب عليّ أن أبقى هنا أكثر من ذلك يا دكتو تشيز الأفضل أن أذهب الى المستشفى.»

«هذا بيتي يا ليجيا وليس بيت روبرت.»

كانت عين آفري الطبية تتفحص الفتاة ولا حظ أنها نحيلة جداً فقال :

«لن يبقى هنا طويلا ياطفلتي وسينتقل الى كوخه يوم السبت ـ ألم تسمعيه [...] يقول ذلك؟ ـ هيا.»

قال وهو يبتسم ابتسامة مطمئنة وينظر الى عينيها الغامقتين المبتلتين بالدموع :

«لا تدعيه يضايقك هكذا. له طريقة شيطانية في المزاح وإذا وجد أنها تؤثر على شخص ما فهو يتمادى من سيءّ الى أسوأ. مشكلته أن الجميع يتملقونه. هل تعلمين أنه ممثل جيد حقاً وناجح جداً. ولكن لا تخبريه أبدا أني قلت ذلك.»

«لا أظن أن هناك احتمالا أن أقول له يا دكتور تشيز.»

كان الشعور بالكرامة مازال على وجه ليجيا النحيل الشاب وهي تطوي باهتمام منديل آفري ووضعته على المكتب .

«لا أظن أني أريد التحدث مع ابن عمك في يوم ما. أظن أنه قاس بعض الشيء.»

ضحك آفري وقال :

«لا تدعي جدتي تسمعك وأنت تقولين ذلك عن روبرت أنها تعتبره أحد الرموز الخالدة!»

«مثل بلوتو رمز الموتى والجحيم!»

قالت وعيناها تلمعان بشدة :

«نعم بلوتو، لأني أعتقد أن ابن عمك لا يستطيع أن يبكي إلا بدموع من حديد.»

امتلأ صوت آفري وعيناه الزرقاوان بالاثارة وقال :

«ويحمل برسيفون إلى مثوى الأموات ـ أليس كذلك ؟»

أكملت كأنها على المسرح :

«ثم انفتح باب ودخل منه الضوء.»

قال آفري :

«من الواضح أنك قرأت شعراً أو أساطير إغريقية يا ليجيا .»

نظرت إليه بعينين واسعتين مندهشتين وتعجبت :

«شعر؟»

«صرخ بلوتو الحديدية، لقد قلتها بنفسك.»

«نعم فعلا .»

اسودّ وجهها للحظة :

«لقد قلت ذلك . أليس كذلك ؟»

ثم انتعشت ومرة أخرى أطبق عليها الشعور بالخواء وبظلام الشخصية القوية. شعرت بالخوف يرتفع إلى حلقها ويدق كالنبض غير المنتظم لأن كل ما استطاعت أن تتذكره هو السماء المعتمة فوقها والقمر يتجول بين السحاب الرمادي المتشابك كشعر ساحرة. كان القمر يضيء المستنقعات الممتدة للحظات ثم يختفي ثم يظهر مرة أخرى . وعندما يختفي كانت تبدو رقع الظلال المعتمة وكأنها قنوات بلا قرار. كانت في كل مرة تظهر فيها هذه الظلال تشعر أنها تريد أن تصرخ بأعلى صوتها خوفاً من أن تكون على حافة احدى تلك القنوات أو الحفر التي ستجذبها لأسفل وتخنقها. وعندما ظهرت أمامها فجأة أنوار هذا المنزل وهي تجري كالنار في وسط الظلمات شعرت كأنها أنوار السماء، وركضت في اتجاهها وهي تتعثر بتلال الحشائش والأعشاب العالية. وعندما وصلت أخيراً الى عتبة هذا الباب كانت قد فقدت كل قوتها وعزمها على الاستغاثة. لا بد أن أهل هذا المنزل سيظنون أنها مجنونة أو مدعية. إن روبرت تشيز يظن ذلك.

ضغطت وجهها البارد في يديها وهي تتلمس في يأس أيّ شعاع ضوء خافت اخترق الظلام عقلها ولكن بلا جدوى . إن كل ما تعرفه أن اسمها ليجيا . قالت بصوت منخفض :

«اني أشعر أني ولدت لتوّي . إنه شعور فظيع !»

همس آفري :

«لا تقلقي هكذا يا ليجيا ـ كل شيء سيعود في حينه.»

«ولكن لماذا يحدث لي هذا ؟ تساءلت عيناها.»

«إنه فقدان ذاكرة هستيري كما نسميه نحن الأطباء ينتج عادة عن مشكلة عاطفية من أيّ نوع.»

«مشكلة عاطفية ؟ ماذا تقصد بذلك؟»

«قصة حب مثلا انتهت نهاية سيئة أو مشكلة في العمل أو مشاجرة مع والديك.»

«والديّ ؟»

ظهر على وجهها تعبير شديد من الخوف والحيرة :

«هل يمكن أن أنسى والديّ هكذا تماماً ؟ إني أشعر أنه لم يكن لديّ والدان أبداً.»

ابتسم آفري بحنان :

«إن الوالدين ضرورة لا يمكن أن نستغني عنها.»

وضع آفري ذراعه حول كتفيها متجاهلا محاولتها الابتعاد عنه وقادها من المكتبة إلى البهو قائلا :

«تعالي وقابلي جدتي العجوز المدهشة. إنها ستنقذك من كل متاعبك. أنت لم تريها على مائدة العشاء لأنها مريضة وتسير على نظام طعام دقيق لذلك فهي تتناول طعامها في غرفتها .إنها شخصية قوية.»

تمتمت ليجيا هامسة :

«إذا كانت لا تنهج نهج ابن عمك في التفكير...ألا تتأثر أنت بتفكيره؟»

توقف آفري أمام باب حجرة الاستقبال المزدوج.

«إن ما يعتقده ابن عمي لا يعني شيئاً بالنسبة الي يا ليجيا . روبرت وحش ساحر وأنا أستمتع بصحبته ولكنّ كلاً منا له وجهة نظر مختلفة في الحياة . هو ساخر وينظر الى الحياة كأنها مسرحية . ولكنه سيتعثر ويسقط في يوم ما. سيقع في شر أعماله.»

«إنه قاس .»

هكذا همست ليجيا . وفجأة ظهرت هالة سوداء تحت عينيها ككدمات زرقاء

وبدا عليها الحزن والتعب . ثم قالت باقتناع غريب :

«إنه يخيفني . هناك شيء فيه يخيفني.»

صاح آفري :

«ليجيا إن روب لا يمكن أن يؤذيك . أنا أعلم أنه يظن أنك تدعين فقدان الذاكرة ولكنه ليس شريراً . من الأفضل لك أن تتجاهلي كل خزعبلاته . هل تظنين أنه لا يتوقف أبداً عن التمثيل ؟»

تفحص آفري وجهها بدقة ولكنها كانت ماتزال تبدو خائفة . ياللصغيرة المسكينة إنها كتلة أعصاب وهذا شيء يفهمه الأطباء. الأعصاب الثائرة من أعراض فقدان الذاكرة الهستيري الذي تعاني منه . تبين له وهو يراقبها أن وجهها الأبيض العكر وشيئاً ما في مظهرها الضائع قد لامس مشاعره وتجاوز اهتمامه الطبي المجرد. إنها تبلغ من العمر تسعة عشر أو عشرين عاماً على ما يظن . وهي مسكينة كما تقول جدته. ولاحظ عند العشاء أنها مهذبة . عيناها جميلتان ورموشها سوداء طويلة تتكاثف بغموض حول حدقتي العينين البنفسجيتين الرائعتين.

لم يكن آفري ـ كما عرف عنه ـ رجلا خيالياً ولكنّ عيني هذه الفتاة الغامضتين وسط وجهها الحساس الشاحب كانتا تثيرانه بالتأكيد، وتدفعانه إلى التفكير في شخصيتها بشيء من الاثارة الصبيانية. ألقى عليها نظرة فاحصة. كانت الحلة المصنوعة من التويد الرخيص التي ترتديها تتدلى على جسمها النحيل بدون أيّ رشاقة. وكانت قصيرة القامة صغيرة القدمين في الحذاء الذي اشترته لها جردا . قال لليجيا ويداه على المقابض الفضية لباب غرفة الاستقبال :

«سآخذك غداً الى برنشام لأشتري لك حذاء يناسبك لأنك ستكسرين كاحلك إذا بقيت تصعدين وتنزلين السلالم بحذاء جردا .»

كان يقول هذا وهو يفتح باب غرفة الاستقبال فسمعت جردا ماقاله واستدارت من باب الشرفة الزجاجي :

«عفواً عن حذائي يا آفري !هل اشتكت ليجيا منه ؟»

احمر وجه ليجيا غضباً تحت نظرة الاحتقار التي رمقتها بها جردا وتمنت لو

استطاعت أن تخلع الحذاء، وتلقي به في وجه هذه السكرتيرة الجميلة التي تتصرف وكأنها صاحبة المنزل.

«إذاً هذه هي الفتاة ؟»

جاء الصوت عميقاً كصوت رجل فانتزع انتباه ليجيا بعيداً عن جردا. بحلقت في جدة أفري تشيز وعلى الفور شعرت بشعور الخوف الذي أثاره فيها روبرت تشيز. لم يكن سبب خوفها أن الوجه الذي واجهها كان أسمر مترعاً غضنته التجاعيد ولكن لأن العينين اللتين كانتا تطلان من هذا الوجه المسن كانتا تلمعان بالشباب والشقاوة بشكل يتعارض تماماً مع عيني روبرت تشيز !

تحدت ليجيا بصعوبة نظرة العينين السوداوين المتفحصتين لها.

«ليجيا ؟ ياله من اسم مضحك !.»

قالت السيدة تشيز ثم أشارت إلى الأريكة حيث كانت تجلس وقالت .

«تعالي اجلسي بجانبي ولا تنظري إليّ هكذا. فأنا لن ألتهمك!»

تقدمت ليجيا بخوف وجلست على الحافة وقلبها يخفق بشدة. ثم قفز قلبها أكثر عندما مدّت السيدة العجوز يدها المكرمشة التي كان يلمع في سبابتها خاتم ياقوت ضخم وأمسكت بيدها اليسرى ، ثم أخذت في ترو شديد تتفحص يد ليجيا وتقلبها على الناحيتين. وأخيرا نظرت العينان السوداوان إلى وجه ليجيا الخائف ثم قالت :

«كنت تلبسين خاتماً في هذا الأصبع الثالث يا بنيتي .»

«خاتم ؟»

نظرت ليجيا بعنف الى يدها التي كانت لا تزال في يد العجوز اليابسه ، فرأت علامة في أصبعها الثالث لا يمكن أن تخطئها العين.

«هل قلت خاتم ياجدتي ؟»

تقدم أفري بسرعة حول الأريكة وأمسك يد ليجيا بعنف وبدون أيّ مجاملة وهو يتفحص مكان الخاتم الذي كان بلا شك موجوداً. ثم التقت عيناه بعيني ليجيا:

«هل هو خاتم خطوبة أم خاتم زواج؟»

«ما هذا الذي تقولانه عن خاتم الزواج ؟»

[illegible] أبواب غرفة الاستقبال بدون صوت ودخل منه روبرت [illegible] النحيل الطويل.

[illegible] على ما أرى.»

[illegible] يا روبرت .»

[illegible] هي التي ردت وقد امتلأت عيناها الزرقاوان بحب استطلاع [illegible] وهي تتجول بنظرها من وجه روبرت الى وجه أفري .

[illegible] أن ليجيا لها زوج.»

[illegible] قط يا جردا .»

[illegible] بخشونة ولكن تعبير وجهه لم يكن كذلك وهو يرد [illegible] الساخرة. ثم استطرد :

[illegible] حدتنا الحادة علامة خاتم حول أحد أصابع ليجيا . الأصبع [illegible] اليد اليسرى.

[illegible] حاجبي روبرت بسخرية شريرة وأخذ يراقب ليجيا :

[illegible]

[illegible] على هذا الأصبع بالذات لاتعني بالضرورة خاتم زواج.»

[illegible] ذلك .»

[illegible] روبرت هذا بهدوء ولكن كلماته بدت كأنها قنبلة تنفجر في الغرفة [illegible] الجو.

[illegible] جردا يدها على فمها لتخفي دهشتها وسرورها في الوقت نفسه ، [illegible] السيدة تشيز بحدة.

[illegible] ليجيا واقفة وواجهت روبرت بوجه ممتقع ثم صاحت :

[illegible] ما يدور بخلدك ياسيد روبرت ـ هيّا قل.»

[illegible] بكل سرور .»

[illegible] والضحك يخرج من فمه :

[illegible] فقدت عملك لا ذاكرتك، وأنك حضرت الى تشيز لتحصلي على [illegible] بلا مقابل ـ في اي حال إذا كنت في عوز وليس لديك مكان [illegible] يمكنك أن تقولي ذلك صراحة ولا داعي لأن تخدعينا جميعاً.»

«ولكني لا أخدعكم.»

بدت الدموع في عينيها واستطردت :

«لا يمكنني أن أفعل ذلك ـ أرجو أن تصدقوني.»

تدخل أفري قائلا :

«طبعا يا روبرت إنها لا يمكن أن تفعل ذلك... لماذا تشك دائماً ولا تثق في أحد

ردّ روبرت وهو ينفض سيكارته بصبر نافذ :

«لماذا ؟ لأن تمثيلية فقدان الذاكرة سهلة التنفيذ .»

التقت عيناه الساخرتان بعيني أفري . واكتسى وجه أفري بالغضب.

«لا أظن أني قابلت شخصاً لا يثق بأحد من الناس مثلك يا بوب ـ لابد أن

داخلك ما يؤلمك بشدة ليجعلك هكذا. ما هو بحق الشيطان ؟»

انفعلت ليجيا بهذا المشهد لدرجة تقترب من الهستيريا . وانكمشت بعـ

عن الجميع وبدت الستائر الزرقاء، والشرفة المغاطاة بضوء القمر خلفها كخلفـ

مسرح ـ وكانت أبواب الشرفة مفتوحة قليلا وبدا قلبها يخفق بشدة وبعصبـ

إنها تستطيع بحركة صغيرة أن تنطلق خارج هذا المنزل وتمضي بعيداً.

«لا ياعزيزتي ـ لا داعي لأن تفعلي ذلك .»

أطبقت أصابع دافئة على معصمها الأيسر :

«أنت لست مضطرة للهروب في الظلام مرة أخرى .»

«هل أنا أهرب يا دكتور تشيز ؟ .»

«نعم ، إنّ رجلا سبّب لك الذعر على ما أعتقد.»

«رجل ؟»

حاولت أن تتذكر . أن تسترجع الوجه المنسي الى ذاكرتها ولكن لم يكن

شيء ، لا شيء البته. كانت هناك فقط علامة الخاتم الغامضة حول أصبـ

وخوفها الغريب من روبرت تشيز خوف لا علاقة له بعدم ثقته فيها أو

استلطافه لها. خوف جعلها تبحث عن يد أفري وتتعلق بها بشدة.

٢ ـ يوم سبت عادي

ألقت شمس الخريف أشعتها من خلال الستائر الوردية وسطعت على السرير

الصغير وغمرت ليجيا المتكورة فيه بضوئها. واستمرت ليجيا في نومها

العميق حتى اخترق الضوء سباتها فاستيقظت .

التفتت عيناها إلى النوافذ والتقطت أذناها زقزقة الطيور في الصباح، ثم

سمعت صوتاً آخر ، صوت حوافر حصان، وذهبت الى النافذة لترضي فضولها،

واكتشفت أن غرفتها تطل على فناء محاط بسور من النباتات.

وكانت الشمس تغمر الفناء والحصان الواقف فيه وتجعل رأس فارسه لامعاً.

أمسكت يد ليجيا على الستارة وفي اللحظة نفسها قبل أن تختفي داخل

الغرفة نظر روبرت تشيز الى أعلى ورآها بعينيه الداكنتين الجامدتين كالعقيق

الأسود في ضوء النهار.

نظر روبرت في عيني ليجيا مباشرة فتضرّج وجهها بحمرة الخجل . ثم

أفلتت يدها الستارة كأنما حرقتها، فسقطت على الفور في مكانها وأخفت روبرت

تشيز الخيل عن بصرها.

وقفت الى جانب النافذة كحيوان وقع في الفخ . ثم ارتفعت الأصوات من

الفناء عندما انضم حصان آخر لحصان روبرت . وارتفع صوت جردا ميتلاند

وهي تقول :

«إنك تبدو ظريفاً يا روبرت.»

ثم ارتفعت ضحكتها المغرية:

«وأنا، هل أذكرك بشيء ظريف ؟»

«طبعا يا عزيزتي . إنك تذكرينني بذلك النوع من الصابون الذي يجعل ال
كبشرة بنت عشرين!»

«إنك متوحش يا روبرت !»

اختفت الأصوات وهما يبتعدان بحصانيهما في الفناء.

كانا ذاهبين بالطبع الى كوخ روبرت .فكرت ليجيا وهي تنظر الى نف
في المرآة . كان وجهها يبدو غريباً عليها وجسمها يختفي في ثنيات قميص ال
الوردي الذي أعارته لها جردا

كانت مندهشة ومذعورة في الوقت نفسه. برغم طمأنة الدكتور تشيز
إنها لا تستطيع أن تتذكر إلا ما حدث منذ وصولها لهذا المنزل . أما قبل ذلك
خارج هذا المنزل فهي لا تذكر شيئاً.

نظرت ـ وقد تملكها الخوف ـ إلى علامة الخاتم حول أصبعها ثم تذكرت
قاله روبرت أنها لجأت الى تشيز ليزودها بالمأكل والمأوى المجاني. وتذكر
المشهد كله وكيف أن السيدة تشيز هبت لانقاذها وبددت بكلماتها جو ال
الذي انتشر في الغرفة بعد كلمات روبرت اذ قالت :

«إنك منفعلة أكثر من اللازم يا صغيرتي ، وفي حاجة الى النوم.»

ثم انتقلت نظرتها الى روبرت وقالت وهي تدفعه في صدره:

«أما أنت يا ولدي فيجب أن تكف عن مضايقة ضيوفنا. قد تكون التقاليد
أوساطكم الفنية تقضي بأن تتراشقوا بالاهانات بينكم ولكننا في منزل تشيز
نفعل هذا ـ هل تسمعني ؟»

«إني أسمعك يا جدتي .»

أجاب روبرت تشيز وقد اختفت ابتسامته الوقحة وحلت محلها ضحك
صبيانية حانية.

«هل تذكرين يا جدتي كيف كنت لا أحتمل ضربك وكيف كنت أصرخ؟»

«لا تحاول أن تستدرجني .»

أدارت السيدة تشيز ظهرها لروبرت بغضب ولكن الابتسامة التي مرت

انتهت ليجيا أنها مستعدة لأن تغفر لهذا الرجل الأسمر النحيل أخطاء
من ذلك بكثير ـ بل وأكثر من ذلك شعرت ليجيا أن السيدة تشيز
الغضب من روبرت لتمنع أفري من التعبير عن غضبه
قد كان على وشك الانفجار. وشعرت ليجيا فجأة بالاحراج الشديد.
دعوني أذهب، لا أستطيع أن أبقى هنا.»

قالت السيدة تشيز باقتضاب :

وخيالك متأجج! فأين تستطعين البقاء؟ في المستنقعات؟»

رأسها بدون أن تنطق.

أستطيع الذهاب الى المستشفى.»

أفري :

للمستشفى.»

ما لم تستطع ليجيا مقاومته عندما أمسك بإحدى يديها وسحبها عبر
يراقبها وهي تصعد السلالم الى غرفتها ثم أحضرت لها الخادمة كوباً
الدافىء، فشربته وكانت تشعر أنها تريد أن تبكي ولكن شدة التعب
عليها فنامت.

نفذ أفري وعده واصطحبها الى برنشام في سيارته ليشتري
ولكن لشدة خجلها كان قد عقد العزم على أن يشتري لها أشياء أخرى

الى تشيز كان المقعد الخلفي للسيارة قد امتلأ بالاغراض
وكانت ليجيا تجلس في سكون بجوار أفري وهي تشعر
بعدم الرضى عن كل هذه المشتريات. أخيراً كان يجب أن تقول شيئاً.
الأشياء...»

وهي تشير الى المقعد الخلفي وأضافت :

ما قاله ابن عمك بالأمس ، كنت أود ألا تصر على شرائها. لن أشعر
في ارتدائها.»

التي تقولينه، أرجو أن ترتديها.»

ابتسم لها وهو يدير السيارة لتدخل الممر المؤدي الى المنزل. وكان البيت الر[illegible]
القديم المحاط من جانبيه ببرجين متآكلين على قمة هضبة تحيط بها حد[illegible]
خضراء. والمستنقعات البنفسجية والذهبية تمتد تحته كتنورة ملونة.

«أرجوك يا ليجيا . لا تشعري بالمضايقة بسبب هذه الملابس القليلة.»

ثم أخذ آفري يلاطفها:

«في اي حال لم يكن ممكناً أن تبقي بحلّة واحدة وطقم واحد من الملابس الدا[illegible]
إلى مالا نهاية.»

«مالا نهاية ؟»

نظرت إليه باستعطاف :

«ولكنك قلت إني سأتذكر كل شيء عن نفسي وسأتذكر بسرعة!»

«أوه يا عزيزتي، ستتذكرين عندما يحين الوقت، طبعاً ستتذكرين»

وطمأنها :

«لكن إذا كنت وحيدة في العالم ولم يسأل عنك أحد فسأعتبر نفسي ...و[illegible]
عليك . في الوقت الحالي فقط .»

كان وجهه الأشقر يبدو رقيقاً.

«فقط تخلّصي من مخاوفك وسينتهي كل شيء بخير إن شاءالله.»

«ولكنك قلت بالأمس إني قد أكون ... قد أكون متزوجة أو مخطوبة.»

شدت على يديها بعصبية وقالت :

«يا دكتور تشيز لا أريد أن اكتشف أني متزوجة !لا أريد ذلك!»

«أرجو أن تناديني باسمي آفري .»

ثم أوقف السيارة فجأة تحت أشجار الصنوبر واستدار لينظر اليها:

«استمعي ياصغيرتي ، مرّ عليك يومان وأنت في تشيز ولم يبلغ أحد بف[illegible]
وأنا لا أتخيّل زوجاً أو خطيباً يمكن ان يكون غير مبال الى هذا الحدّ.»

وقال وهو يبتسم :

«الزوج يقدّر زوجته أكثر قليلا مما يقدر كتاباً أو لفة من البقول . وقد لا ي[illegible]
إذا ضاعت منه هذه الأشياء، ولكن إذا لم تعد زوجته الى المنزل فإنه يطب[illegible]
البوليس.»

«ولكن إذا كنا قد تشاجرنا ـ في هذه الحالة قد لا يشغل نفسه بالبحث عني.»

«[illegible] تشعرين أن لك زوجاً يا ليجيا ؟»

سأل آفري وهو يبتسم كما لم يبتسم الليلة الماضية. كان يبدو غريباً في
[illegible] النهار أن هذه الطفلة النحيلة ذات الشعر الأسود لها زوج . ولكن لم يكن
[illegible]ـها الشعور بالاطمئنان الذي تضفيه الثقة بالنفس والحنكة التي تكتسب
من الزواج.

[illegible] أخذت تلوك الكلمة في فمها كأنها كلمة غريبة معناها غير مفهوم لديها.
[illegible] نظرتها إلى آفري وأخذت تتأمل سترته والساعة في معصمه وكل
[illegible] الرجولة الملحوظة فيه وتقلبها في ظلام عقلها لعل أحد هذه الأمور
[illegible] ويذكرها بشيء، وفطن آفري الى ما يدور بتفكيرها فهز رأسه:

«لا يا ليجيا ... لا تحاولي ... لا تضغطي على عقلك كما لو كنت تضربين حماراً
[illegible] دعيه يستريح وينام كما يشاء. ودعيه يصحو عندما يستطيع ذلك.»

عندما وصلا الى المنزل كانت جردا ميتلاند وروبرت قد عادا من رحلتهما
[illegible] الشراب والعصير في الشرفة. وأخذ روبرت يراقب بسخرية
[illegible] الرزم والصناديق من السيارة وعندما مرّت ليجيا بجانبه صاح
[illegible]

«[illegible] ليجيا . هل قضيت وقتاً طيباً؟»

[illegible] ليجيا حرجاً.

«[illegible] لست ...»

[illegible] عندما زلّت قدمها على السلم المؤدي لغرفة الاستقبال وسقطت وسط
[illegible] التي كانت تحملها. استمرت جالسة على الأرض وهي تتمنى لو تموت.

[illegible] روبرت وجذبها واقفة قاومته بشدة:

«[illegible]»

[illegible] تصرخ وتقاوم يديه.

[illegible] :

«[illegible] وأوقف مضايقاتك لها تماماً لأني بدأت أتعب من ذلك.»

[illegible] نظرته الرافضة احمر خداها الناعمان قليلا. وقالت-

«التواضع الزائف يضايقني والأفضل أن أعترف أني [illegible]»

«كل هذه التصريحات الخطيرة في هذا المكان الشاعري [illegible]»

وأشار روبرت بيده النحيلة الى الشرفة الممتدة وضوء الشمس عند المغيب وهو ينعكس على النوافذ وأشجار الصنوبر الطويلة الرشيقة التي تمتد حتى المنزل وتنشر رائحتها الذكية. والتفت الى جردا وقال:

«انت امرأة فاتنة ـ وأنا وغد ـ وغد لعين ـ ألست خائفة اذاً؟»

عندما نطق بهذه الكلمات قفز تعبير طفيف الى عيني جردا :

«خائفة ؟»

ضاع صدى الكلمة في أعالي الشجر وضحكت وأخذت رشفة من مشروبها

«لست خائفة على الاطلاق . ألم أذهب معك الى كوخك المنعزل؟»

«إنك صريحة تماماً.»

ضحك روبرت في وجهها المتوهج:

«كما أنك تهينينني أيضاً ـ ماذا كنت تظنين أني فاعل بك في كوخي المنعزل»

قالت بلا خجل :

«ظننت أنك ستقبلني . لماذا لم تفعل ؟»

«لماذا لم أفعل ؟»

قال ذلك وهو يبتسم بطريقة غامضة ثم أضاف :

«لم أفكر في ذلك يا جميلتي . هل من المفروض ألا أفكر إلا في الاغراء؟»

«حسناً . إن لك سمعة مريبة ـ أليس كذلك يا روبرت ؟»

نظرت اليه وهو يقف مستنداً الى حائط الشرفة بسمرته ، وعدم اهتمامه برأي الآخرين . فتأكدت أنها تريد شيئاً أكثر من إعجابه. إنها تعلم أنه رقيق كما أنه لا يستطيع أن يبقى مخلصاً. ولكن هذا لا يهم، إنها تريده

بدأت تسأله :

«هل حقا ستعيش وحدك في هذا الكوخ ولا يؤنسك في المساء غير البوم»

قال :

«البوم وصوت تقصف أوراق الأشجار وسقوط المطر في المساء.»

كان يضحك بخبث وهو يراقبها.

«طبعا، سأعيش هناك.»

«من سيعتني بك ؟ هل ستحضر السيدة وودز من شقتك في لندن؟»

«لا يا عزيزتي .»

تثاءب ونظر إلى السماء بتثاقل. بينما كان السحاب يمر وقد اكتسى شيئاً من حمرة الشمس التي بدأت في المغيب. وكانت أصوات الطيور تترامى من الحديقة والنسيم يهب فيحرك شعر روبرت ويحمل معه رائحة أعشاب المستنقعات.

«لا، لن أحضر الطاهية ودسي . سأطهو طعامي بنفسي. ستحضر إحدى السيدات لتقوم بالتنظيف ولكن بشكل عام سأتمتع بمكان ريفي. لقد توقف الاعداد للمسرحية الجديدة ولكني رغم ذلك سأحفظ النص.»

أخذت جردا تتفحص أظافرها ثم قالت :

«لا أعلم لماذا لا تبقى هنا في تشيز .»

«ألا تعلمين ؟»

تساءل وهو يبتسم ابتسامة عريضة :

«الأقارب ممتازون ولكن فقط إذا لم يضطر الانسان لرؤيتهم كثيراً. وفي الحقيقة أنا رجل يحب الوحدة.»

«هل أنت كذلك ؟»

نظرت إليه جردا بشيء من الاحتقار :

«[illegible] أحد النجوم التي يعشقها المجتمع في لندن وأنت تعلم ذلك ـ أنت تحب الاطراء والتملق وأظن أن هذا هو الشيء الوحيد الذي تستطيع أن تحبه.»

«هذا ليس صحيحاً يا جميلتي ـ إنني أحب كلبي ايضاً !»

في اللحظة التالية استدار وذهب ليدخل المنزل.

[illegible] نهاية الأسبوع بهدوء فقد ترك روبرت منزل تشيز صباح السبت الى [illegible] حيث يرتب الأثاث الذي أتى به من لندن . وعندما نزلت ليجيا من [illegible] ووجدت أنه انصرف شعرت كأنها فأر صغير تخلص من مضايقات قط [illegible]

[illegible] إلى المكتبة وأخذت تقلب الكتب الموجودة فيها وفي الساعة الحادية [illegible] أحضر ديفيد، كبير الخدم، القهوة وهو يفسح الطريق بأدب، تسبقه

السيدة تشيز إلى داخل الغرفة قامت ليجيا، التي كانت متكورة في أحد
الكراسي [illegible] غارقة في نسخة قديمة من أساطير أنغولد سباي، ووقفت
[illegible] شعور الشخص الدخيل عندما وضع ديفيد في صمت صينية
[illegible] أمامها
[illegible]»

[illegible] كبير الخدم ، ولكن عندما رأت نظرة الازدراء الباردة أرخت
[illegible] أن آفري أمر الرجل بأن يحضر لها القهوة. لكن القهوة
كانت ساخنة [illegible] توقفت تحتسيها بينما أخذت السيدة تشيز تراقبها. وقالت
[illegible] الصامت
[illegible] وسكر وأنا مريضة بالسكر»
[illegible]»

[illegible] وهي تتذكر ما قاله آفري من
[illegible] . قالت في نغمة جافة بصوتها
[illegible]
[illegible] مرض السكر مرض مريح إذا كان هناك طبيب في المنزل. هيا
[illegible] إلى الحديقة حتى تصبغ الطبيعة وجهك بلون
وردي»

قالت ليجيا على الفور:
«آه ، إني أحب أن أخرج للحديقة»

كانت رؤوس الأشجار الطويلة وألوان الأزهار المفرحة تبدو من نوافذ غرفة
المكتب ولكنها كانت تخشى المجازفة في الخروج بمفردها إلى الحديقة، لأنها كانت
تشعر دائماً بأنها دخيلة رغم توصيات آفري المتكررة بأن تتجول في المنزل
والحديقة كما تشاء. كانت تعلم أن آفري هو صاحب المنزل ولكن نظرات الخدم
المتسائلة كانت تجعلها تشعر بعدم الراحة.

«هل تأنسين إلينا الآن أكثر من ذي قبل ؟»

سألتها السيدة تشيز وهي تقف بجانب مكتب آفري وترى بعسير نافذ
مظهره غير المنظم. ثم التقطت بضيق وبدون انتظار من ليجيا منديلاً حريرياً

كان من الواضح أنه استعمله في تنظيف قلمه الحبر ثم قالت:
«انظري إلى هذا»
[illegible] يمكن أن تفعل بهذا الرجل. حقاً إنه ليس معدماً ولكن هذا لا يعني أن
يستعمل مناديله الحريرية لتنظيف أقلام الحبر أو أن يستعمل هذا الطبق
الصيني النادر كمطفأة لسكائره»

تبعت ليجيا نظرة السيدة العجوز إلى الطبق الأزرق الغامق ذي الرسم
[illegible] في منتصفه وقد امتلأ بأعقاب السجائر وعليها علامات أحمر شفاه
جريئا .

«إنه هكذا غير منظم منذ كان طفلاً»
ثم أفرغت ما بالطبق ونظفته بالمنديل المستعمل.
«وأنا [illegible] تشيز [illegible] كتقدير عائلة الجميلة والممتلكات للأشياء تقدير أبدا لديه يكن لم
أشعر عندما أفكر فيما سيؤول إليه الحال عندما أغيب عن هذا المكان. للأسف
[illegible] روبرت لم يكن خليفة ابني الأكبر لأنه يقدر أكثر من أي شخص آخر أي
قطعة صيني أو زجاج ثمينة ـ أما آفري فهو لن يعرف ما إذا كان يأكل من
[illegible] كلب أو يشرب من كوب فرشاة أسنان وأعتقد أنه سينتهي بالتضحية بكل
الأشياء الجميلة في منزل تشيز من أجل العلم. إنه يستطيع أن يفعل ذلك»

تنهدت ولاحظت ليجيا يدها المتكرمشة المرتعشة وهي تعيد الطبق إلى
مكانه.

«عشت سنوات طويلة في هذا المنزل يابنيتي ـ جئته وأنا عروس ولي من العمر
سبعة عشر عاماً. والانسان يصبح جزءاً من أساس المنزل وجدرانه بعد خمسة
وستين عاماً»

همست ليجيا :
«خمسة وستون عاماً»
«كم هو جميل وفي الوقت نفسه كم هو محزن أن يختلط نسيج عمر الانسان مع
جدران منزل، ثم يستمر هذا المنزل طويلا بعد أن يكون هؤلاء الأطفال الذين
[illegible] فيه ولعبوا وضحكوا ومارسوا الحب في كل جوانبه قد أصبحوا مجرد ذكرى»
نعم يا بنيتي أنا عجوز ولدي ذكريات كثيرة ولكنها مرتبطة بهذا المنزل. هل

تظنين أن تشيز منزل جميل؟»

أجابت ليجيا على الفور :

«نعم بالطبع .»

«إنه يسحرني بأبراجه العالية وأشجار الصنوبر الشاهقة وإنني أسمع أشجار الصنوبر وهي تتناجى في المساء فتجعلني أشعر بأني لست وحيدة.»

«هيا بنا لنلحق قليلا من شمس الخريف.»

قالت السيدة تشيز ذلك وهما تخرجان من باب المكتبة إلى الحديقة.

لم تكن حديقة مخططة بل كان يختلط فيها كل شيء بسحر منزل تشيز نفسه. كانت النباتات بأشكالها وألوانها المختلفة تنمو جنباً الى جنب وتختلط ببعضها بشكل جميل. وكان الماء تحت أحواض الزهور البنفسجية والأرجوانية والحمراء يترقرق في جدول متعرج تقفز فيه أسماك الزينة الذهبية الصغيرة وتحيط بزنابق الماء البيضاء الجميلة. وكان يمر فوق الجدول جسر صغير من أحجار الصوان الدقيقة. قدمت ليجيا ذراعها للسيدة تشيز لتستند عليها وهما تنزلان بين الورود البنفسجية والزرقاء وتعبران الجسر وتسيران تحت ظل أشجار الأرز الباسقة وتصلان الى حديقة السيدة تشيز الخاصة، مصدر متعتها الكبرى حديقة الأعشاب. كانت ليجيا مفتونة تماماً بأنواع الأعشاب الكثيرة الغريبة لدرجة أنها نسيت خجلها من عيني السيدة تشيز السوداء الفاحصة ولسانها السليط أحياناً وأخذت تسألها عن استعمالات الأعشاب المختلفة.

قالت السيدة تشيز وهي تضم يديها وتعبث بخاتمها ذي الياقوتة الضخمة:

«عندما أشم رائحة الليمون أتذكر قطع الكعك في غرفة الأطفال الكبيرة وكيف كان والد روبرت يحبها. كان ابني المفضل ـ هناك دائما ابن مفضل ـ يأمل الشخص أن تتجسد فيه آماله. ولكنه خيب آمالي من وجوه عدة.»

وقبل أن تفكر ليجيا جيداً في كلماتها وجدت نفسها تقول :

«هل روبرت يخيب آمالك يا سيدة تشيز ؟»

«روبرت ؟»

ومضت عينا السيدة تشيز تحت جفنيها المتعبين:

«لماذا تسألينني عن روبرت ؟»

اشتد حرج ليجيا وتفادت نظرة السيدة تشيز المتسائلة. فسرت ليجيا ما تعني وهي تتعثر:

«يبدو أنك تغفرين له كل ما يفعل كما يغفر الأنسان لابنه المحبوب رغم أنه ليس ابناً طيباً.»

«تقصدين تسليماً بالأمر الواقع ؟»

كادت السيدة تشيز تضحك:

«إنك طفلة ثاقبة الفكر أليس كذلك؟»

«هل أنا كذلك ؟»

تفرست ليجيا في وجه السيدة العجوز لتتأكد، أنها لا تسخر منها ولكنها وجدت فقط نظرة غريبة متعبة بدلا من الابتسامة التي كانت على شفتيها منذ لحظة ولم تستغرب عندما قالت السيدة تشيز :

«هيا بنا نعود ـ اقترب وقت الغداء.»

عادتا من طريق آخر يمر بأحواض زهور أكثر تنظيماً يتخللها سياجات من الأشجار الصنوبرية المشذبة جيداً. كان هناك رجل عجوز ينحني على حوض رائع من زهور الداليا طلبت منه السيدة تشيز أن يقطف لها مجموعة منها.

ثم أخذت تطوي الرجل العجوز :

«لقد تفوقت على نفسك هذا العام يا تانر .إني معجبة بهذه الزهور ذات اللون العاجي والقلب الأخضر.»

«إنها جميلة فعلا يا سيدتي ولكن الخنافس تتعلق بها. هذه هي مشكلة زهور الداليا.»

أخذت السيدة تشيز زهور الداليا منه ووضعتها بين ذراعي ليجيا :

«أظن أن بعض الخنافس لا تهمك ـ أليس كذلك ؟ أم أنك من أولئك الفتيات المتحذلقات ؟»

ابتسمت ليجيا قليلا وهزت رأسها بالنفي.

ثم فجأة وبلا مقدمات استدارت السيدة تشيز الى البستاني وقالت له :

«تانر هذه هي السيدة الصغيرة التي سمعت كل شيء عنها بلا شك في المطبخ.»

أخذ يتفحصها بعينيه الحادتين ثم قال :

«إنها تبدو مندهشة حقاً كما يقال عنها يا سيدتي.»

ثم قال بشبه ابتسامة في عينيه

«بعض الناس يجب أن يضلوا الطريق قبل أن يعثروا عليه.»

قالت السيدة تشيز لليجيا وهما تدخلان المنزل:

«كان تاثر العجوز جيسي بستاني عندما جئت الى هنا كعروس.»

«إنه أحد الأصدقاء القلائل الباقين لي. هرمت يا عزيزتي وتركت الجميع تقريباً
ورائي ... ها هو ديفيد !»

رأت رئيس الخدم الكئيب فنادته عبر البهو:

«ديفيد أحضر لي بعض أواني الزهور الى المكتبة. تلك الغرفة أصبحت تبدو كحجرة للتدخين وسأضفي عليها جواً بهيجاً ببعض الزهور.»

« نعم يا سيدتي .»

بدا عليه عدم الرضا وتبعته السيدة تشيز بنظرة قاسية وقالت :

«ديفيد لا يوافقني يا بنيتي.»

دخلت المكتبة . ثم استدارت تنظر لليجيا بصبر نافد وهي تنقل الزهور من يد الى اخرى كأنها تفكر في التخلص من الزهور والخنافس معاً بإلقائها مرة أخرى في الحديقة.

صاحت السيدة تشيز :

«أوه . تعالي، أدخلي.لا تخافي من الخدم ـ لا شيء يعجبهم أكثر من ذلك!»

وعندما دخلت ليجيا الغرفة قالت السيدة تشيز :

«روبرت يظن أنك خادمة أو وصيفة إحدى السيدات. هل أنت كذلك ؟»

كانت السيدة تشيز طيبة بطريقة غير متوقعة حتى الآن لذلك جاء هذا التغيير المفاجيء والعودة للشك كصفعة على وجه ليجيا.

أرخت ليجيا عينيها فألقت رموشها ظلالاً عليها وقالت :

«لا أعلم يا سيدة تشيز ولكني أعلم أني لا أريد أن ابقى هنا طالما هناك شك حولي . إني أفضل أن أذهب الى مستشفى.»

«ولكن آفري يفضل أن تبقي هنا.»

قالت السيدة العجوز ذلك وهي تضحك لنفسها وجرت عيناها كعنكبوت على

وجه ليجيا الشاحب ـ وعندما تكلمت مرة أخرى كانت تراقب يد ليجيا اليسرى النحيلة ذات المظهر البائس كوجهها. ثم قالت بصراحة شريرة:

«أنك لست جميلة يا ابنتي ولكن الرجال لهم أذواقهم الغريبة. هل يعجبك آفري؟»

أجابت ليجيا ببساطة:

«نعم، إنه طيب بطبيعته.»

«هراء! مامن رجل مالك لكل قواه العقلية يكون طيباً بطبيعته مع امرأة ، إذا كان طيباً فهذا لأنه يأمل أن تصبح طيبة هي الأخرى.»

نظرت السيدة تشيز بسخرية إلى ليجيا التي اتسعت عيناها باحتجاج:

«وهذا ينطبق على آفري أيضاً رغم مظهره الطيب.»

ولكن ليجيا تذكرته في السيارة بينما كانا عائدين من برتشام في اليوم السابق ، وتذكرت كم كان عطوفاً عليها كأخ ولم تستطع أن تصدق إيحاءات جدته عنه. على كل حال لم تكن كما قالت السيدة تشيز جميلة وليس لها أي بريق ولا بد أنها تبدو بجانب جردا ميتلاند كغراب حقير بجانب عصفور كناري جميل.

مرّ باقي يوم السبت بدون أحداث . ولكن في المساء، وجدت السيدة تشيز ضفدعة على الشرفة فتنبأت بأن الجو سيمطر، وأمطرت فعلا واستمر المطر طوال الليل، ولكنه توقف صباح الأحد، وأحضر آفري معطف مطر لليجيا وأخبرها وهو يبتسم أنه سيصحبها للنزهة في طرقات ديفون.

٣ ـ شوكة في العين

كانت زهرة قفاز الثعلب ذات اللون الأرجواني تتدلى مبللة ونظيفة على جانبي الطرقات. أما حشيشة العُطاس بورودها الصفراء الزاهية فكانت تخفف من كآبة جو الصباح. وكانت ليجيا تسير بجانب أفري وتنصت باهتمام إلى حديثه عن منزل تشيز والحديقة التي كانت تتفرع فيها هذه الطرقات منتهية إلى الطريق الرئيسي.

ثم تطرق الحديث بطريقة طبيعية وبانسجام بينهما إلى أمور شخصية خاصة، فسألته ليجيا عن السبب الذي دعاه لترك عيادته في لندن فأجابها:

«لأني مهتم بمرض لا علاج له. الامراض الأخرى يتم علاجها بمجرد تشخيصها، وذلك المرض هو الروماتيزم.»

«الروماتيزم.»

هز رأسه بالأيجاب وأخذ يشرح لها أن كثيرين من مرضاه السابقين كانوا يعانون بشدة من هذا المرض المؤلم وأن العلاج المتاح يريح المرضى لفترة قصيرة جداً. ولهذا السبب كرّس نفسه لدراسة مفصلة وهو يأمل أن يستطيع إنتاج دواء له فاعلية أكبر من أي من الأدوية الموجودة حالياً.

صاحت ليجيا:

«أظن أن هذا شيء رائع!»

ثم استطردت:

«وهذا يثبت أن رأيي فيك كان سليما.»

«رأيك فيّ؟»

«نعم! إنك طيّب بطبيعتك.»

تسلقت أحدى العتبات ثم ضحكت بشقاوة عندما لاحظ حذاءها المبتل فانتهرها لسيرها في الماء قائلا:

«هذه هي الطريقة الأكيدة لتصابي بالروماتيزم ـ أيتها الشيطانة الصغيرة.»

ثم ساعدها للنزول عن العتبة ـ فقفزت وسط بعض الحشائش العالية المبتلة وعندما بللت قطرات الماء أطراف معطفها ضحكت بانطلاق وقالت بشيء من السرور:

«أوه إني أحب كل هذا الماء ـ لا بد أني كنت بطة.»

«نعم، ان روح بطة ربما حلت فيّ.»

أخذت تركض وتسابق أفري وشعرها المقصوص أسود فاحماً كجناح طائر وأكمام معطف المطر الذي تلبسه تتدلى واسعة وطويلة على يديها. فكر أفري أنها تشبه غراباً صغيراً نشط فجأة. وأخذ يضحك بهدوء ثم أسرع خطواته وهو يتبعها في الحشائش المبتلة.

عندما وصل الى الناحية الأخرى من الحقل كانت ليجيا تتنصت إلى أجراس الكنيسة القريبة. أعجبتها أصوات الأجراس فقالت:

«أليس هذا صوتاً جميلا يا دكتور تشيز؟»

سرت إليها رائحة الأسوار النباتية والحقول فشعرت فجأة أن كل هذه الأشياء جديدة لم تألفها. لم يحدث من قبل أن تمشت في طرقات ديفون في صباح يوم أحد، وسمعت أجراس الكنائس بأصواتها المطمئنة عبر الحقول في الخريف. كما أن الرفاهية التي كان يسبح فيها منزل تشيز لم تكن معروفة لها في حياتها السابقة التي لا تذكرها.

قالت بصوت خفيض مرتعش:

«هل تعلم يا دكتور تشيز أني لا أستطيع أن أستغل عطفك أكثر من ذلك.»

قال وهو يبتسم:

«اسمي أفري. العطف هو الشمس التي تنمو فيها الفضيلة. ومن الجائز أني

أبحث عن الفضيلة.»

هتفت بحماس :

«إن لديك أطناناً من الفضيلة.»

«لم يخطر ببالك أني قد أقوم بخدعة ما، ولكن ابن عمك يظن ذلك ويظن أني أخطط للحصول على كل ما أستطيع منك ولكن هذا ليس صحيحاً.»

«أنا أعلم أن هذا غير صحيح، وأرجو أن تنسي روبرت .»

استدارا معا للعودة الى تشيز:

«إنه الآن يصارع مع قطع الأثاث المختلفة وسكرتيرتي ـ قالت إنها ستذهب لمساعدته في ترتيب المكان ولكن لا أعلم اذا كان هو قد دعاها أم لا.»

«يبدو أنه يستلطفها ـ أليس كذلك ؟»

قالت ليجيا وهي تتذكر نظرات روبرت إلى أكتاف جردا البيضاء مساء يوم الجمعة وكيف عزف الاثنان ثنائيات على بيانو غرفة الاستقبال.

«إنها جميلة جداً ـ وعندما أكون معها في نفس الغرفة أشعر بأني بطة قبيحة جداً شعري القصير.»

مررت ليجيا يديها الصغيرتين بسرعة في شعرها مما جعله منتفشا وعندما نظر اليها آفري انفجر ضاحكا ثم قال مستعطفا:

«أيتها البطة القبيحة الصغيرة ـ عديني بأنك لن تتحولي أبدا إلى بجعة.»

ابتسمت ابتسامة ممزوجة بعدم الثقة... بجعة ! ثم دفعت يديها في جيوب معطف المطر الطويل وضربت الماء على الأرض بقدمها وفي هذه اللحظة تذكرت ما لوحت به جدة آفري بالأمس. نظرت إليه بعينيها البنفسجيتين فالتقت عيناها وخفق قلبها بعنف عندما قال :

«إنك لست قبيحة يا عزيزتي ـ لديك أجمل عينين رأيتهما في حياتي.»

الأسبوع التالي ظهرت تباشير الخريف بوضوح في تشيز فبدأ الضباب يغطي الحديقة صباح كل يوم ، سمعت زقزقة العصافير المهاجرة وبدأت تطير في رحلة العودة . واكتست أوراق النبات المتسلق الذي يغطي جدران أبراج منزل تشيز بحمرة مشرقة جميلة.

كان اليوم الجمعة ـ وقد قضت ليجيا فترة بعد الظهر في الحديقة وهي

تساعد تانر في كنس أوراق الشجر. وعندما حل الغسق قالت لتانر العجوز وهي تنظر إلى الممرات النظيفة:

«سأدخل الآن. أظن أني جعلت الحديقة تبدو أكثر ترتيباً.»

كان تانر يتقبل وجودها في الحديقة كما يتقبل نبتاً صغيراً جديداً. كان يحكي لها لساعات طويلة ومنه تعلمت الكثير عن ديفون وتقاليدها، وكذلك عدة أمور هامة عن عائلة تشيز . ومنها على سبيل المثال أن جدة آفري كانت من عائلة تشيز أيضاً قبل زواجها. وأنها تزوجت ابن عمها طبقاً للتقاليد وحفاظاً على ثروة العائلة. ولكنه لا يعلم إذا كانت قد سعدت في حياتها. فقد قيل إنها كانت تريد أن تسلك طريقاً خاصاً بها. ولكن العائلة كان يتأصل فيها حب الملكية في ذلك الزمان. أما الجيل الحالي فهو يختلف تماماً وخاصة الدكتور تشيز الذي لا يهمه إلا ما يخص أبحاثه. أما السيد روبرت فهو لا يعلم ما بدخيلة نفسه. فكل حديقة لها أعشابها المختلفة ومنها ما يمتد جذوره أعمق مما يمكن انتزاعه.

قالت ليجيا :

«السيدة تشيز تحبه كثيراً .»

«الحب في القلب أحياناً كالمهماز في الجنب . إنها تعرفه جيداً يا آنسة.»

تذكرت ليجيا هذا الحديث وهي تراقب تانر يشحمّ المقص وفكرت باندهاش في تشبيه الحب ـ بالمهماز في الجنب ـ هل هذا هو الحب ؟ فجأة قالت :

«تصبح على خير يا سيد تانر .»

واتجهت الى المنزل. كانت الغربان تطير حول الأبراج . وقرص الشمس الاحمر المائل الى الغروب يعكس الأشعة الحمراء على نوافذ البيت الكثيرة ، بينما كانت ليجيا تقفز سلالم الشرفة متجهة الى غرفة الاستقبال ، وعندما فتحت الستائر الزرقاء، ودخلت،شمت رائحة قهوة وسكائر معينة جعلتها تتوقف فجأة ـ ثم تراجعت لكن صوت جردا ميتلاند انطلق من خلفها:

«ماذا بك يا ليجيا ؟ إذا داخلة هيا بربك ادخلي .»

ثم دفعتها بغير رفق خلال الستائر التي كان يطيّرها الهواء فوجدت نفسها تنظر إلى ظهر روبرت تشيز النحيل المعتدل. فرفعت قطعة خشبية في المدفأة

ا إشارة تثير انتباهه. استدار روبرت برشاقة وكان يلبس كوفية من
ف الكشمير عقدها بأناقة داخل سترته ذات المربعات الرمادية السوداء ،
ك سيكارة من النوع المصري الذي تعرفت ليجيا الى رائحته. نظر إليها
عماق أعماقها المرتعبة. والتوت شفتاه في ابتسامة ثم حوّل نظرته عنها وقال

ا :

ري من جاء يزورك.»

أشار بيده الى السجادة حيث كان يجلس في وسطها بهدوء كلب الصيد
يم بانكر وهو ينظف نفسه كقط ذهبي كبير.

ال روبرت :

ع نفسه بالوحل وهو يعبر المستنقعات ولأنه ليس مؤدباً بل يهتم بمظهره كثيرا
فهو ينظف نفسه الان. بانكر هيا ايها الاحمق المغرور تعال وسلم على السيدة
الجميلة. لقد رأيتها من قبل.»

تراجعت ليجيا وابتعدت عن الكلب ـ صاح روبرت بحدّة:

«إنه لن يعضك ! يا إلهي إنه أطيب مخلوق في العالم.»

كانت تريد أن تقول نعم إني أعلم ولكن الكلمات لم تخرج من فمها. كل ما
شعرت به هو احساسها غير المحتمل بأنها دخيلة وأنها لا يجب أن تكون في هذا
المكان.

« بانكر . تعال هنا . إنك غير مطلوب هناك يا صديقي.»

تردد بانكر ونظر مرةً أخرى الى ليجيا بعينيه الواسعتين الحائرتين. ثم نبح
بصوت خفيض كأنه يطلب منها أن ترد على محاولته التعرف عليها.

فقد روبرت صبره ونادى بانكر مرة أخرى :

«تعال هنا ـ تعال أيها المغفل ! لا تكن مزعجاً.»

انزاح الدخان عن عيني روبرت فرأت ليجيا نظرتـه الباردة وهـو
يتفحصها من رأسها الى قدمها.

«السيدة لا تحبك .»

نظر إليه الكلب باستغراب وكأنه يقول:«ما الذي تقوله. كل الناس تحبني».
وعندما عبس روبرت استدار الكلب وعاد مرة أخرى لتنظيف نفسه . عندما

لم يكن روبرت هنا ليثير كل مشاعر ليجيا ويحولها إلى صرخة ألم صامت
واحتجاج. كانت تحب هذه الغرفة. هنا يلتقي الماضي والحاضر ليكونا مجموعة
متناسقة من الألوان. كانت جدران البلوط والأرضيات فاتحة اللون والستائر
والسجادة والأريكة والكراسي المنجدة بقماش مزخرف تبدو كقطع من المجوهرات
المتناثرة في الغرفة. وكانت هناك خزانة صغيرة تتمشى مع لون البيانو الذي يزين
آخر الغرفة. ولم يكن في الحجرة سوى صورتين إحداهما صورة العذراء الرقيقة.
أما الثانية فهي صورة وجه رسمه الفنان يوهان زوفاني لأحد أعضاء العائلة
الذي مات منذ زمن طويل وكان أيضاً ممثلا مثل روبرت .يلبس رداء من
الحرير الأسود وجهه نحيل وغامض ويده السمراء الجميلة موضوعة بخفة على
ظهر كرسي محفور .

نظرت ليجيا الى هذه الصورة وراء رأس روبرت الاسود وفهمت لماذا
كانت تعكس عليها شعوراً بعدم الراحة عندما كانت تجلس في هذه الغرفة. كان
الوجه المرسوم الذي مات صاحبه منذ زمن طويل هو وجه روبرت . كانت
العينان المرسومتان تنظران الى ليجيا بسخرية واستخفاف وتتبعانها تماما كما
تفعل عينا روبرت . وفجأة شعرت ليجيا أنها لا تستطيع أن تتحمل هذه
العيون لحظة أخرى. تحركت من وضعها الساكن وانفلتت لتخرج وهي تمرّ
بجانبه. رفع يده اليسرى وأمسك بكتفيها وأدارها إليه بعنف. كانت أصابعه
تمسك بها بقسوة وهو يقول :

«أين تظنين أنك ذاهبة. لم نتبادل أي حديث أنا وأنت ـ إني أريد أن أعرف كيف
تسير أحوالك هنا.»

لم تستطع الرد عليه. كانت لا تستطيع إلا الوقوف خرساء أمامه وهي تشعر
بأصابعه الطويلة القوية تضغط بقسوة على عظام كتفيها الرقيقة.

أخذ ينظر إلى وجهها كأنه يراجع انطباعاته السابقة عن ملامحها والتوت شفتاه
في ابتسامة عندما لاحظ خوفها منه:

«حسناً، كيف حالك الآن ؟»

«بخير ... أشكرك.»

«هل عرض آفري عليك الزواج أم أنه مازال يظن أنك ملك شخص آخر.»

... من شخص بهذه الأخلاق الكريمة كأبين

... نظر إليها:

... شخص كريم الأخلاق.»

... الدرجة حتى تقول كل ذلك !إنني لا أخدع آفري

... من شيء. إنها الحقيقة والآن اتركني !»

... من قبضته ولكنه أمسك بها بقوة لدرجة أنه آلمها.

... يديه تخففان قبضتها. قالت وهي تشعر بالهزيمة

... كذلك ! لك وجهاً عديم الرحمة كرجال التفتيش الأسبان

... الصورة على الجدار!»

... استخفافه أكثر من غضبه. ولكن جردا التي كانت

... :

... هل تعلمين جيداً مع من تتكلمين ؟»

... لا تعلم ـ إنها مصابة بفقدان ذاكرة. أليس كذلك!»

... يتكلم وبقيت عيناه مركزتين على ليجيا ولكن

... الشعور بعدم الراحة.

... أيضاً يا روبرت ، ولاتنس أنه طيب.»

«أوه أترك الفتاة وشأنها ـ إذا سمع آفري أنك كنت تضايقها سيستشيط غضباً ويمنعك من الحضور الى المنزل ـ إنها لا تساوي كل هذه المتاعب بالتأكيد ؟»

«أنا لا يهمني على الاطلاق منزل آفري اللعين ولا يهمني حضوري هنا أو عدمه .»

ردّ عليها ثم شعر بليجيا وهي ترتعش بجانبه فنظر إليها من أعلى قائلا :

«إذن تجدين وجهي كوجه رجل من رجال التفتيش الأسبان. أهو كذلك يا ليجيا؟»

حسناً أمي كانت راقصة أسبانية من مدريد. ربما علمت بذلك أيضاً»

احرّ وجهها أمام نظرته العدائية المتسائلة. كانت فعلا تعلم ذلك عن أمه فقد أخبرها تاتر بالثورة التي حدثت عندما أحضر والد روبرت عروسته الأسبانية الى المنزل في تشيز . وكانت صارخة الجمال ولكنها لم تنل إعجاب أهل تشيز لأن ذوقهم وطباعهم كانت تختلف عن طباعها وذوقها ، ولم تكن تلك الزيارة ولا الزيارات التي تلتها موفقة.

قالت ليجيا :

«نعم أنا أعلم ذلك عن والدتك.»

انتقلت عيناها إلى وجه روبرت ورأت ملامحه القاسية وكيف يستطيع أن يجعل نظرته تبدو جامدة وبلا معنى عندما ينظر أحد إليه مباشرة كأنه يضع حاجزاً بين الناظر إليه وبين أفكاره ليبقى في عزلته.

تساءلت بهدوء :

«هل أستطيع أن أذهب الآن ؟.»

«بكل تأكيد .»

دفعها بعيداً عنه وانتقل إلى جانب المدفأة فخرجت من الغرفة.

«إنك عدو مخيف أليس كذلك يا روبرت ؟»

قالت جردا ذلك وعيناها الزرقاوان تتفحصان الوجه الذي رسمه زوفاني.

تتبع روبرت نظرتها قائلا باستخفاف :

«من الجائز أنه الدم الأسباني الذي يجري في عروقي يا عزيزتي. وكما تعلمين إن الدم الأسباني يجري في عائلة تشيز منذ فترة طويلة قبل أن يقع والدي في حب فتاته الراقصة من مدريد. فهناك اثنان من عائلة تشيز كانا ضابطين في

ربة دريك . أحدها أحضر عروساً أسبانية ضمن الغنائم التي أحضرها
ه من غارة على قادش. وكانت جدة آدم تشيز ماركيزة أسبانية. قالها وهو
ر الى الصورة. ويبدو أن الانجذاب الى الأسبانيات استمرّ عبر السنين.»
لكن أرجو ألا يكون قد استمر فيك يا روبرت .»
قالت جرياً ذلك وهي تمد يدها إليه بأصابعها ذات الطلاء القرمزي. وانحنى
روبرت ناحيتها ثم جذبها من كرسيها إليه وتفرس في وجهها:
ت جميلة كالطلاء ـ أليس كذلك ؟ فتاة النتيجة، فتاة علبة الشيكولاته.»
ثم ضحك بسخرية عندما اقتربت منه . فقالت هامسة:
ريد أن أنتزع عينيك !»
كيف تجرؤ على أن تعاملني بقسوة ـ هذه المعاملة تخص المخلوقات الصغيرة
المضحكة مثل ليجيا .»
هل عاملتك بقسوة ؟»
قال ببرادة ساخرة :
حسناً اذاً في هذه الحالة لن تريدي عناقي أليس كذلك ؟»
أيها الشيطان الأسمر اللعين.»
قالت ذلك ويداها تلتفان حول عنقه.
وأنت تعلم جيداً أني أريدك حتى لو كنت على المشنقة!»
بعد أن تركت ليجيا غرفة الاستقبال ذهبت على الفور الى غرفة نومها.
ولكنّ شعوراً غريباً بالقلق تملكها بمجرد أن أغلقت الباب.
بعد قليل سيدق جرس العشاء، وستضطر إلى النزول . إنها تكره فكرة العشاء
وروبرت تشيز يجلس في مواجهتها يراقبها.
خرجت من غرفة نومها وهرعت إلى البهو. تخطت أبواب غرفة الاستقبال وهي
تجفل لصوت رقعة حذائها على الأرض الخشبية. وبيدين مرتعشتين بعصبية
سحبت معطفاً للمطر من دولاب البهو وارتدته بدون تأنٍ وبسرعة خرجت من
المنزل كشخص مطارد. كان ضباب الخريف يتحرك كالستائر الخفيفة بين أشجار
الصنوبر واكتست الأرض بالأوراق كالسجادة، حيث أسرعت ليجيا تسير عبر
الممر الذي يمتد بين أشجار الصنوبر. كان شهر سبتمبر (أيلول) يقترب وأصبحت

الأمسيات باردة. ورمت ليجيا ياقة معطفها حول وجهها وهي لم تقرر بعد
إلى أين ستذهب. فقط كانت متأكدة أنها يجب أن تترك تشيز.
كانت تنورة المعطف الطويل الفضفاض الذي ترتديه ترتطم برجليها وهي
تسير ، مما ذكرها بخروجها للنزهة مع أفري يوم الأحد. فقد كانت تلبس المعطف
نفسه . تأكدت بعد تلك النزهة أن تشيز وكل ما يتعلق به أشياء جديدة في
حياتها لم تقابلها أو تعتد عليها من قبل ـ كل أولئك الخدم والحشم والغرف
الجميلة والطعام الذي يقدم في أطباق من الفضة أو تلك الخيل التي تصطف في
الاسطبلات والسيارات.. من أين جاءت ولماذا لم يسأل عنها أحد في مركز
بوليس برنشام ؟ توجه أفري مرات عدة خلال أسبوع ليستفسر إذا كان
أحدهم سأل عنها ولكن الجواب في كل مرة كان بالنفي وبأن من الجائز أن هذه
الشابة وحيدة في العالم وليس لها أحد يسأل عنها وأن على الدكتور تشيز أن
ينتظر بصبر حتى تعود الى نفسها وتتذكر من هي ومن أين أتت.
وحيدة في العالم ؟ هل هذا هو الجواب ؟
تنهدت ياله من خاطر بائس ألاّ يكون لها إنسان في العالم يسأل عنها أو يهتم
بها. ثم تذكرت والألم يحزّ في نفسها مما قاله روبرت تشيز ـ هل طلب أفري
منك الزواج أم أنه مازال يظن أنك ملك لشخص آخر؟
كانت السخرية في صوت روبرت تكشف بوضوح أنه لم يكن يعتقد أنها
ملك لشخص آخر. وبدأت تعتقد هي أيضاً أن عالمها كان خلواً من أي شخص
يمكن أن يعتبرها ملكاً له.
لم يكن هناك زوج! وأيّاً كان نوع الخاتم الذي ترك علامته على أصبعها فهي
متأكدة أنه لم يكن خاتم زواج.
تنهدت مرة أخرى. لكنها كانت تشعر بالتعب. إن حذاءها يؤلمها. استندت إلى
جذع شجرة صنوبر طويلة ووقفت تحك كعبها. إلى أين تذهب في هذه الأرض
العريضة؟ إلى برنشام ؟ أجل لماذا لا تذهب إلى برنشام. هناك مستشفى وفي
المستشفى لن تشعر أنها دخيلة. لن يستطيع روبرت تشيز أن يحضر ويسخر
منها هناك بعينيه السوداوين ويتهمها بأنها تخدع أفري .
«أفري !»

التوى وجهها بالألم وفي لحظة ضغطت رأسها إلى جذع شجرة الصنوبر وانهمرت دموعها ـ كانت تبكي كطفل تخلى عنه أبواه. وكان جسمها يرتعش من البؤس والبرد كانت تبكي للظلام الذي حلّ بعقلها ولأنها كانت تخشى الفراغ الذي قد يكون وراء هذه السحابة من النسيان.

عندما انتهت أخيراً عاصفة البكاء أخذت تبحث في جيوب معطف المطر عن المنديل الذي كانت تحسسته في أحد الجيوب وهي تسير في ممر الصنوبر ـ وجدته منديلا رجالياً كبيراً وعندما وضعته على أنفها شعرت بأن قلبها ينخلع. كانت به رائحة السكائر المصرية : شعرت أنها تريد أن تبكي حظها العاثر وأن تطلب من الله أن يكف عن تعذيبها. جففت وجهها بعنف بالمنديل ثم دفعته بسرعة في الجيب.

كانت تعلم أن جردا ارتدت هذا المعطف أحيانا . ولكن هل اقترضت جردا هذا المنديل من روبرت خلال إحدى نزهاتها معا في الحديقة أو في المستنقعات لتمسح احمر الشفاه عن فمها.

لفت النجوم بشدة محذرة ليجيا أن الوقت يمر بينما هي مازالت واقفة تبكي وحدها وتتساءل إذا كان روبرت تشيز اعتاد عناق سكرتيرة أقري ...

تحركت مبتعدة عن أشجار الصنوبر ثم توقفت فجأة واتسعت عيناها المتورمتان من أثر البكاء عندما حمل الهواء لها صوت نباح كلب .

كان في الصوت نبرة غريبة كصوت استعطاف جرو صغير تائه ووحيد. استجاب قلب الفتاة التائهة الوحيدة على الفور لهذا النداء. إنه بانكر ـ بانكر الذهبي بعينيه الطيبتين . شيء ما في طريقة نباحه أنبأ ليجيا أنها يجب ألا تخشى مقابلة روبرت لأن الكلب وحيد وقد حدث له مكروه ما ! وقبل أن تفكر جيداً فيما تفعله انطلقت خارجة من بين أشجار الصنوبر وهي تنادي الكلب . بعد حوالي دقيقة استجاب الكلب لندائها وخرج يقفز من بين أشجار الصنوبر ـ جرى مباشرة إليها وهو ينبح بألم ودفع رأسه في معطفها.

« بانكر ماذا جرى ؟»

مرت بيديها على جسمه، على ظهره وجوانبه ولكنه كان سليماً كما تهيأ لها في الظلام. لم يكن يعرج ولم يكن هناك أي بلل يشير إلى وجود جرح أو دم من أي

نوع. ومع ذلك كان يرتعش ويضغط جسمه عليها.

«بانكر يجب أن آخذك إلى المنزل.»

أنساها خوفها على بانكر أنها كانت تنوي الذهاب الى برنشام وإلى المستشفى هناك. أمسكت بطوقه وأخذت تحثه على السير ناحية المنزل ولكنه رفض أن يتحرك وقد تشبث بالأرض.

«أرجوك يا بانكر .»

في النهاية لفّت ذراعيها حوله ورفعته عن الأرض ـ كان ثقيلا وأسند رأسه إلى كتفها وهو يخُرج أصواتاً تنم عن الألم.

كانت آلامه تحزن ليجيا وتزعجها. أخذت تكلمه كطفل متألم بينما بدأت تترنح وهي تحمله وتسير به في ممر الصنوبر. ثم ارتقت سلالم المنزل بصعوبة وأخيرا وجدت الجرس وجذبته ، وانتظرت بفارغ الصبر حضور ديفيد ليفتح الباب لأن وزن بانكر كان يزداد ثقلا في ذراعيها.

«حالا يا عزيزي سترى ما يؤلمك.»

أخذ بانكر يلعق خديها كأنه يفهم كلماتها وفي اللحظة نفسها انفتح الباب وأخذ رئيس الخدم يحملق في الصورة الغريبة التي أمامه.

قالت بأنفاس متقطعة :

«إذهب وأحضر السيد تشيز يا ديفيد ـ إذهب بسرعة لأن بانكر قد وقع له حادث.»

«أي حادث يا آنسة ؟»

سقط قناع ديفيد الكئيب قليلا وبدا عليه شيء من الاهتمام وهو يراقب ليجيا وهي تحمل الكلب إلى داخل البهو.

«لا أعرف بالضبط ماذا حدث له ولكن أسرع وأحضر السيد تشيز.»

«العائلة تتعشى يا آنسة.»

«أوه ! بحق السماء!»

نسيت ليجيا تماما خوفها السابق من رئيس الخدم ونظرت إليه بغضب:

«السيد تشيز يجب أن يعلم ما حدث على الفور ـ الحيوان يتألم بشدة ألا تستطيع أن ترى ذلك؟»

وضعت ليجيا بانكر على أحد الكراسي التي كانت في الصالة ووضعت يدها تحت رقبته ورفعت رأسه الجميل إليها ولكنها صاحت باحتجاج وشحب وجهها من الفزع - فقد كانت هناك شوكة سميكة طولها حوالي بوصة تخرج من عينه اليسرى.

سمعت أقداما سريعة تجتاز البهو وتأتي من خلفها فاستدارت لتواجه روبرت وقد سقط شعرها على عينيها الفزعتين الواسعتين ولوثت بقع الدم من عين بانكر المصابة صدر معطفها.

قالت :

«دخلت شوكة في عين بانكر المسكين - وجدته بين أشجار الصنوبر»

أصوات عميقة روبرت بشدة وفي لحظة كان يقف بجانبها وينحني على بانكر - حرك بانكر ذيله بضعف مثير للشفقة يحيي روبرت - راقبته ليجيا وهو يرفع رأس الكلب بيديه برقة متناهية ويفحص عينه المصابة وبعد لحظة سأل :

«هل أفري هنا ؟»

نظرت ليجيا الى غرفة الطعام، شعرت بالارتياح لأن أفري كان قادما عبر البهو، كان وجهه الأشقر متجهما وسأل ليجيا :

«أين كنت ؟»

«أنا... أشارت إلى الكلب، ذهبت لأتنزه فوجدت بانكر»

قالت ذلك ثم أخذت ترتعش داخل معطفها وقد شعرت فجأة أنها مريضة.

«دخلت شوكة كبيرة في عينه، هل يمكن أن تستخرجها ؟إنها تؤلمه بشدة.»

«تعالي .»

أمسك بها أفري بعنف وأدارها ناحية غرفة الاستقبال قائلا:

«اذهبي واجلسي بجانب المدفأة واطلبي من جدتي أن تعطيك قليلا من الشراب .»

«ولكنك ستستخرج الشوكة بسرعة أليس كذلك ؟»

استدارت مرة أخرى لتنظر إلى بانكر الذي ترك نفسه وهو يشعر بالأمن بين يدي روبرت

«أظن يا صديقي الأحمق أننا سنغير اسمك إلى نلسون قبل أن تنتهي هذه

العملية.»

استدار لينظر الى أفري :

«الشوكة عميقة، هل تظن أنك تستطيع أن تتصرف أم نتصل بطبيب بيطري ؟»

تركتهم ليجيا ونفذت أمر أفري آلياً بالذهاب الى غرفة الاستقبال حيث جدته ، وبينما هي تطرق باب الغرفة رأت جردا تجري ناحية أفري وروبرت . ثم عاودها الشعور بالغثيان ففتحت باب غرفة الاستقبال بصعوبة ودخلت وهي تشعر أن الأرض تدور بها.

كانت السيدة تشيز تجلس على الأريكة وتنظر بتركيز إلى صحيفة مفتوحة أمامها. وكانت تلبس نظارة ذات إطار ذهبي وقد انزلقت حتى منتصف أنفها الشامخ وبجانبها مذياع صغير يُصدر موسيقى هادئة. رفعت عينيها وهي تسمع الأبواب تفتح وتغلق ثم نظرت بحدة من خلف نظارتها وهي تفحص ليجيا ثم سألت :

«ما الذي تفعلينه هنا بهذا المعطف القذر ؟»

سقطت الصحيفة فجأة من يديها.

فكّت ليجيا بيديها المرتبكتين أزرار المعطف وجذبته عن أكتافها:

«لم... لم أنتبه...»

إستدارت لتخرج المعطف خارج الغرفة.

قالت السيدة تشيز بحدة :

«بحق السماء يابنيتي - ضعيه على كرسي.»

«عليه دماء من عين بانكر - دخلت في عينه شوكة وأنا وجدته و..واحضرته للمنزل.»

«هل تتكلمين عن كلب روبرت ؟»

وقبل أن تكمل كلامها انفتح الباب ودخل أفري بخطوات واسعة إلى الغرفة وهو يزرر معطفه.

«هل أخبرتك ليجيا عن الكلب يا جدتي ؟»

«نعم دخلت شوكة في عينه أليس كذلك ؟»

هزّ أفري رأسه :

«سأذهب أنا و بوب الى برنشام لناخذه الى طبيب بيطري ـ كنت أستطيع أن أستخرج الشوكه بنفسي ولكن بوب مضطرب جداً ومنزعج من أجل الكلب وأنا أخشى أن يحدث خطأ ما فأشعر أني مجرم.»

ثم انتقلت نظرة أفري الى ليجيا وببطء تفحصها وهي تقف وقد أطبقت يدها على معطف المطر المتسخ ثم سألها:

«لماذا خرجت ؟»

«شعرت بحاجة الى بعض الهواء...»

قالت ذلك وهي تتفادى نظرته لئلا يستشف من عينيها أنها كانت تنوي ترك تشيز البيت الأبيض. لم تكن تريد أن تصبح تشيز - أفري بالتأكيد.

قال مؤنباً :

«اخترت وقتاً غير ملائم للنزهة وفاتك العشاء. سأطلب من ديفيد أن يحضره لك هنا. والآن يجب أن أذهب.»

«على فكرة يا ليجيا : بوب طلب مني أن أشكرك لاحضارك بانكر الى المنزل .»

«هل سيتعافى ؟»

هز أفري كتفيه :

«إنه ليس كلباً صغيراً في السن ـ عمره سبع سنوات ومثل هذا الحادث قد يؤذيه كثيراً ـ في كل حال سننتظر لنرى ما يحدث . كفاك انزعاجاً.»

ابتسم لها ثم نظر إلى جدته :

«لا نعرف كم من الوقت سنبقى لدى الطبيب البيطري يا جدتي فلا تنتظرينا.»

سألته :

«هل سيعود معك روبرت ؟»

«لا أعرف حقاً ـ قد يفضل الذهاب الى منزله ـ هناك احتمال كبير أن يبقى بانكر لدى الطبيب وكوخ بوب أقرب الى برنشام من هذا المنزل.»

«كما لو كان الكلب طفلاً ؟»

قالت ذلك ثم نظرت بحدة الى أفري من فوق نظارتها:

«هل جردا هناك في البهو لتمسك يده ؟»

ابتسم أفري :

«صعدت لتحضر معطفها لأنها ستذهب الى الطبيب البيطري معنا.»

أغلق الباب وراءه وألقت السيدة تشيز الصحيفة فأحدثت صوتاً عالياً.

وقالت :

«طبعا سيذهب معهم ! انها فرصة للتودد لروبرت وأظهار العطف الجميل»

نظرت العينان السوداوان الى وجه ليجيا :

«إنها تريد ابني ـ يا ليجيا ـ هل لاحظت ؟»

هزت ليجيا رأسها بالايجاب .

«وما رأيك ؟»

«أظن أنها جميلة جداً.»

[illegible] - خصائص الكلب

[illegible]

[illegible] كأنها تكلم نفسها.

[illegible]

[illegible]

[illegible] بالسيدة تشيز كانت عيناها تبدوان مرهقتين وهي

[illegible]

[illegible] بعيدة لن تستطيع أن تصل إليها أو تفهمها، أعماق

[illegible] أنها موجودة فيّ على نحو ما ـ والآن اسكبي لنفسك

[illegible]

[illegible] يداي تشعران ببرد قارس.»

[illegible] في مواجهة السيدة تشيز . وكانت تبدو صغيرة

[illegible] لا تنسجم على الاطلاق مع جوّ هذه الغرفة المنسقة

[illegible] ناحية المدفأة وقد إليها يديها النحيلتين لتدفئها.

[illegible]

[illegible]

[illegible] من خلف الكراج. في أي حال، جس هولت طبيب

[illegible] كثيراً على الكلب .»

«ولكن السيد تشيز كان منزعجاً جداً عليه.»

«إنه يهتم كثيراً بهذا الكلب . الأشخاص الذين يعانون من الوحدة يميلون لأن يجعلوا من هذه الحيوانات أطفالا أو أحباء. أظن أنك تعجبين لقولي عن روبرت إنه رجل وحيد.»

فكرت ليجيا في ذلك ثم قالت :

«لا، إني لا أعجب لذلك ـ أظن أننا جميعاً نشعر بالوحدة قليلا ـ أليس كذلك ؟»

«ليس الجميع يا طفلتي ـ وليس الجميع بالطريقة نفسها. وبالتأكيد ليس بطريقة روبرت ـ *أخبريني ما الذي عرفته عن عائلة تشيز حتى الآن*»

«علمت أنها عائلة عريقة جداً.»

«نعم يا ليجيا عريقة جداً ـ وغير نقية في بعض الأحيان وهو شيء ينتقل في الدم ويظهر من وقت لآخر في بعض الأحفاد.»

تعلقت نظرتها بالصورة التي رسمها زوفاني والتي تشرف على غرفة الاستقبال وتبعتها نظرة ليجيا أيضا وقد قفز قلبها لأن تلك العينين السوداوين اللامعتين لم تكونا بالتأكيد مرسومتين ـ كانتا تسيطران عليها وتتحركان بسخرية عميقة ـ أخيراً استطاعت أن تنتزع نظرتها بعيداً ثم قالت السيدة تشيز

«كان اسمه آدم تشيز وكان ممثلا مثل روبرت و روبرت يشبهه . أليس كذلك ؟.»

قالت ليجيا وهي تهمس :

«الشبه مخيف .»

«لماذا استعملت هذه الكلمة ؟.»

«لا ... لا أعرف ...»

«ما الذي ترينه يا ليجيا ؟.»

قالت السيدة تشيز ذلك وقد رنّت نبرة مثيرة في صوتها الآمر.

«إنك ترين شيئاً ـ ألا تستطيعين تعريفه ؟»

«كبرياء . اعتداد بالنفس . قسوة.»

«كبرياء . اعتداد بالنفس. قسوة ووحدة الوثني القلقة . نعم إن كل هذه الصفات

تميّز وجه آدم تشيز الذي مات منذ زمن طويل ـ ولكن عندما تنظرين إلى الصورة فإنك لا ترين آدم تشيز ـ أنا نفسي لا أراه ـ إني أرى روبرت .»

«أنت أيضا ترينه ؟»

تفحصت عينا ليجيا البنفسجيتان الوجه المغضن العجوز وعندما هزت السيدة تشيز رأسها بالايجاب شعرت ليجيا بتوتر أعصابها يخف ـ أصبحت وكأنها فجأة تشترك مع السيدة تشيز في سر ما.

«نعم يا بنيتي إني أرى روبرت ـ إني أعرف روبرت ولذلك فأنا منزعجة جداً لهذه العلاقة التي تنمو بينه وبين جردا . أسأل نفسي إذا كان لديها الخيال الكافي والقلب الصادق الكبير الذي يجعلها تفهم الرجل ـ ذلك الرجل الذي لا يفهم نفسه جيداً. وإلا لماذا يجد نفسه أحياناً مدفوعا لتصرفات شيطانية وفي الوقت نفسه يشعر بالوحدة . إن الجواب الذي أردّ به على نفسي لا يطمئنني يا ليجيا .»

سألتها ليجيا :

«حتى لو كان الحب يجمع بينهما يا سيدة تشيز ؟»

«نعم حتى في هذه الحالة ـ إنها تماماً كما تبدو ـ امرأة جميلة ـ لا تصلح إلاّ للحب والاعجاب ـ ولا شيء اخر ـ روبرت يحتاج لأكثر من ذلك . إنه يحتاج لامرأة تفهمه كما هو، وإلاّ ستكون نهايته سيئة كما فعل بعض أفراد عائلة تشيز السابقين ومنهم والده.»

ثم ابتسمت السيدة تشيز وهي تقول لليجيا :

«لا يبدو عليك الانزعاج كثيراً لفكرة نهاية روبرت السيئة . هل تكرهينه إلى هذا الحد؟»

«أنا أعرفه بالكاد يا سيدة تشيز .»

«آه إني أتساءل وفي أيّ حال سألتني حزنا على ذلك. كل العائلات القديمة كعائلتنا يحدث أن تنتج من وقت لآخر نسلا مشابهاً لأجدادنا الأوائل غير المتحضرين ـ روبرت هو هذا النتاج ـ كان يجب أن يرتدي ملابس العصور الوسطى ويسير في الشارع ومعه سكين يخفيها في كمه. ولكن لأنه ولد في القرن العشرين فهو مضطر لأن يتمشى مع قوانينه وعاداته وهو يحسن التصرف إلى حد

ـ كما أن المسرح يعطيه فرصة للترفيه عن نفسه قليلا ـ ولكنه احيانا يظهر طبيعته الوثنية تماماً ويبدو على حقيقته، هذا هو روبرت ـ روبرت ـ الذي أحبه يا ليجيا .»

إرتفعت يدا السيدة تشيز ثم سقطتا على ركبتيها تعبيراً عن تسليمها بالواقع وخوفها العميق في الوقت نفسه.

«عشت لأرى والد روبرت يدمر حياته بنفسه وأرجو ألا أعيش لأرى المأساة تتكرر في روبرت .»

«ولكن يا سيدة تشيز ...»

سمعت ليجيا نفسها تقول :

«ضعاف الشخصية فقط يدمرون أنفسهم و روبرت ليس ضعيف الشخصية.»

«لن يأتي سقوط روبرت من ضعف في شخصيته ولكن لخضوعه الكامل لمشاعر الوحدة بداخله. وإذا حدث هذا سيستسلم تماماً لوثنيته. أظنّ أنه يعلم أن هذا قد يحدث له ، لذلك فهو يتجه بمشاعره الآن إلى جردا ويسأل نفسه إذا كانت هي كل ما يريده ويحتاج إليه. وإذا تمّ هذا الزواج أرجو من الله أن ينجح لو لم ينجح وبدأ في الانحدار فسيجرها معه.»

شعرت ليجيا من حتمية هذا المصير المشؤوم. وراقبتها السيدة تشيز ثم قالت :

«فعلها أبوه من قبله، كما فعلها آدم تشيز من سنوات عديدة مضت ـ إنها لعنة لحقت بعائلة تشيز . كما أنه من غرائب عائلة تشيز أن الدم نفسه الذي ينتج رجالا مثل روبرت ينتج إلى جانبهم رجالا مثل أفري ـ أنا لا أقول إنه قديس لأنه ليس كذلك . ولكنه لن يؤذيك يا طفلتي إذا تبين أن علامة الخاتم حول أصبعك لا تعني شيئاً . وإذا كنت محقة فيما أعتقده من أنه قد بدأ يهتم بك ... آه هذا هو ديفيد وقد أحضر عشاءك.»

تناولت ليجيا عشاءها بدون أن تشعر بطعمه فقد كانت تشعر بتعب شديد من كل أحداث ذلك المساء الغريبة وبعد أن شربت القهوة استأذنت من السيدة تشيز وصعدت إلى غرفة نومها.

وعندما وضعت رأسها على الوسادة الباردة المعطرة ابتسمت ابتسامة ضعيفة. اعتقدت أنها ستترك تشيز ولكن يبدو ان تشيز لم ينته بعد منها ولأنها تعلم أن تشيز لم يكن لديه مفتاح ماضيها المنسي قررت بخفقة في قلبها أنه قد يحمل مفتاح مستقبلها. أثقل النوم جفنيها فتركت نفسها له ولكنها سمعت بومة خارج نافذتها تنقض على فأر غيط فاستسلمت الى النوم وهي تعتقد اعتقاداً غريباً بأن البومة انقضت عليها هي ورفعتها فجأة في الهواء واطبقت عليها بمخالبها الطويلة التي لا فكاك منها.

لم يعد روبرت تشيز ذلك المساء، وفي الصباح أخبر أفري ليجيا أنه تمّ إجراء عملية جراحية لبانكر ولكن لأن الطبيب كان لديه شك في إمكان الشفاء الكامل للعين أبقاه في برنشام . ابتسم أفري وهو يأكل وقال :

«بوب شخص مضحك يحب الاستقلال في بعض الأحيان ـ لقد استعار دراجة قديمة من جس هولت ليذهب إلى برنشام كلما أراد رؤية المريض.»

ألقى أفري قطعة خبز إليها عبر المائدة وابتسم قائلا :

«تستطيعين أن تأتي لاطعام حيوانات المختبر معي . هل تريدين ذلك ؟»

«طبعاً.»

«*هل تحبين الحيوانات يا ليجيا* ؟»

وعندما أجابت بالايجاب قال :

«هذا ما قلته لبوب ونحن في السيارة الى برنشام الليلة الماضية. إنّ هذا الشخص المضحك يعتقد أنك كنت خائفة من بانكر ـ أخبريني يا ليجيا هل رأيت بوب وقت الأصيل . وهل كان هذا سبب خروجك من المنزل وعدم عودتك للعشاء.»

أخذت تحرك شوكتها وسكينتها بعصبية، قالت وهي تنظر لأفري باستعطاف:

«نعم رأيته ... أنا لا أريد أن أتكلم في هذا الموضوع. إنه لا يستلطفني وعندما نتقابل تفضي الوقت في جدال . هذا كل ما في الأمر ـ والآن لنذهب ونرى حيوانات المختبر»

تساءل أفري :

«فيم تتجادلان بوب وانت ؟»

«أشياء تافهة .»

«لن أقبل أن يكون وقحاً معك يا ليجيا .»

نظر إليها بعينيه الجذابتين الرماديتين الزرقاوين :

«إنه لا يهتم كثيراً بما يقوله للآخرين.»

«يا عزيزي أفري الأمر ليس هاماً، أرجو أن تصدقني.»

إبتسمت وكانت عيناها أكثر سحراً مما تتصور ـ وفي لحظة قام وذهب إليها حول المائدة وأمسك بيدها وجذبها واقفة:

«هيا أيتها الطفلة الغريبة. تعالي لاطعام الحيوانات. وبعدها سأجعلك ترين الجراثيم بالمجهر . هل يبدو ذلك مسلياً ؟»

«جداً .»

«أليس هناك شيء آخر تفضلين عمله ؟»

ضحك بنغمة حزينة بعض الشيء. وعندما أمسك بها وجذبها إليه لم تقاومه فوضع ذراعيه حولها بحذر حتى لا يخيفها.

«ليجيا ـ إنك تبدين كطائر صغير ـ طائر أسود صغير وأنا أريد أن أضعك في القفص ـ لا يهمني من *أنت* ولا من *أين أتيت*.»

«قد أكون مجرمة .»

ابتسمت بلمسة من الحزن ـ كانت سترته التويد خشنة ودافئة الملمس وكانت ذراعاه مريحتين.

«هل تظن أني كذلك يا أفري ؟»

«نعم أنت ماتاهاري ومن الأرجح أنك هنا لتسرقي أسرار معملي.»

«إذاً من الأفضل ألاّ تريني تلك الجراثيم لأني قد ألتقط صورتها.»

«سأعطيك صورتها ـ بل أي شيء آخر.»

أخذ يزيح شعرها الأسود عن جبهتها وفجأة حاول عناقها.

«كلا . صاحت بهلع وأخذت تقاومه!»

«أرجوك لا تفعل.»

«لا تخافي يا عزيزتي لن أؤذيك.»

«أنا جادة يا أفري ! اتركني ! أنا لا ... اتركني!»

شحب وجهها كالعاج ـ تمالك أفري نفسه فابتعد عنها بسرعة وهو يشعر بالخجل.

ذهبا الى الباب وهما متوتران ثم قالت ليجيا بصوت مبحوح وقد ضايقتها نظرة أفري التي تدلّ على لوم النفس :

«أنا التي يجب أن أتأسف ـ أنا غبية وناكرة للجميل .»

«ناكرة للجميل ؟»

نظر إليها بطريقة مضحكة :

«أنا لم أطلب شكراً على شيء فعلته ولكني نسيت أنك مصابة بفقدان الذاكرة ونسيت تلك العلامة حول أصبعك التي قد تعني أنك ملك رجل آخر.»

في الأسبوع التالي كان مصير عين بانكر يناقش في تشيز . لم يظهر روبرت وكانت الأنباء عن تقدم حالة الكلب تأتي عن طريق جردا التي كانت تتحايل للحصول على إجازات من العمل لدرجة أن أفري لجأ لليجيا لتساعده في كتابة بعض المذكرات وفي مراسلاته. كانت ليجيا مستعدة للمعاونة ولكن محاولتها أثبتت شيئاً واحداً مؤكداً هو أنها لم تكن في أي وقت تعمل كسكرتيرة كما أنها لا تصلح لأن تكون كذلك. كانت تسجل مذكرات أفري وخطاباته بصعوبة بالغة. وعندما حاولت الكتابة على الآلة الكاتبة كانت النتيجة غير مشجعة. كان أفري يضحك منها ولكنها عندما كانت تنفرد بنفسها كانت تحس بأن شعور القلق يتزايد لديها. لقد مرّ عليها أكثر من ثلاثة أسابيع في تشيز الآن وهي مازالت تجهل تماما شخصيتها والمكان الذي أتت منه والعمل الذي كانت تقوم به.

لم يكن ممكناً أن يستمر هذا الوضع غير الطبيعي ! ومن ذلك الصباح عندما حاول أفري عناقها وهي لا تشعر بالاطمئنان إليه. لقد حاول الاقتراب منها وإشعارها بنفسه كرجل ولكن ذلك التصرف جعلها تشعر بوجود حاجز معنوي بينهما لم يكن موجوداً من قبل ـ أصبحت متحفظة معه رغماً عنها وكانت كلماته «ملك لرجل آخر» تؤرقها.

لذلك أسعدها جداً اقتراح أفري يوم السبت أن يذهبا بالسيارة إلى برنشام.

«أجل...أجل .»

قالتها بحماس وهرعت تحضر معطفاً من غرفة النوم ـ ثم نزلت وقد ارتدت سترة التويد التي لبستها عند حضورها الى تشيز . استاء أفري عندما رآها ترتدي تلك السترة المزرية وتفضلها على المعطف الثمين الذي اشتراه لها، ولكنه امتنع عن التعليق.

قال عندما ركبا السيارة :

«هل تريدين الذهاب إلى شاطىء البحر أم تذهب لزيارة عائلة بيرو ؟.»

«شاطىء البحر لو سمحت.»

الأمطار استمرت ساعتين بعد الظهر وغسلت الشارع الطويل المتعرج والمنحدر إلى برنشام ، كما غسلت الأشجار والحقول فبدا كل شيء نظيفاً. وكان الهواء معطراً برائحة الخضرة. استنشقت ليجيا الهواء المنعش وشعرت بالارتياح... ارتياح شخص كان يشعر بالاختناق.

وضع أفري السيارة في مكان الانتظار واتجه مع ليجيا إلى الميناء. كانت حركة البحر هذه الليلة هادئة ومعتمة تحت سماء بلا قمر. وقفت ليجيا بجانب السور وهي تستنشق روائح الميناء. شعر الاثنان بالهدوء والطمأنينة بالألفة القديمة غير المتحفظة تعود إليهما. كانا يتبادلان كلمات قليلة ولكن في أغلب الوقت كانا صامتين يسمعان خرير البحر عندما يحركه النسيم الرقيق من وقت لآخر.

انتفض الاثنان عندما سمعا صوتا وراءهما يردد:

«كم أحب الموج، كم أهوى الرياح العاصفة. كلّ شيء صيغ من نسيج الطبيعة لم تلطخه أيادي البشر.»

«أنا فعلا أحب الطبيعة مع الشاعر شيللي هذه الليلة!»

أكمل الصوت بنبرة عميقة.

استدار أفري ناحية روبرت وهو يخرج غليونه من فمه، أما ليجيا فالتفتت ببطء أكثر وهي تضع يدها على قلبها.

قال أفري :

«عندما تقول الشعر يا بوب ، أكاد أصدق أن لك قلباً.»

ضحك روبرت وسقط عليه شعاع ضوء من الميناء فبدت عيناه لامعتين

متحدبين ومثبتين على ليجيا وبدون مقدمات قال لها:
«أشكرك لمساعدة كلبي يا ليجيا . قيل لي إنك حملته. لا بد أن ذلك كان مجهوداً شاقاً لأنه في مثل حجمك تقريباً.»
سألت ليجيا :
«هل هو أحسن الآن ؟»
«أحسن بكثير ـ أشكرك . سآخذه الى المنزل غداً. لقد خاط جس هولت العين.»
«أنا آسفة جدا لأنه فقد عينه.»
لقد أنساها عطفها على الكلب تحفظها المعتاد مع هذا الرجل.
«إنه حيوان جميل جداً ـ أليس كذلك؟»
«نعم ولا يزال.»
قال روبرت وهو يتحسس مكان الجرح بأنفه :
«كان يمكن أن تكون الحالة أسوأ. أخبرني جس أنه لو تلوث الجرح كنت فقدت بانكر ـ إنني أكره أن أفقده ـ لأنه هدية من فريق الممثلين في إحدى مسرحياتي.»
ابتسم وقال :
«اسم بانكر اسم غريب بالنسبة الى كلب ـ ولكن الرواية كانت ناجحة لدرجة أني لم أستطع مقاومة تسمية الكلب باسمها.»
«على كل حال كنت أقول إن جس خاط العين وهي لا تبدو جميلة وبانكر يجب أن يلعب مع الأطفال. وقد اختلط عليه الأمر واعتقد أنك طفلة ذلك اليوم في تشير .»
«إننا جميعا معرضون للخطأ في حكمنا على الأشخاص.»
قال آفري ذلك بنبرة ذات مغزى . وابتسم روبرت ابتسامة ماكرة.
«إنك تبدو حكيماً جداً هذه الليلة ـ أيها العجوز ـ أظن أنك تحتاج الى مشروب . إنها فكرة فلنعد جميعاً إلى صالة توبي . إنهم يحتفلون هناك بزواج ابن صاحب المحل وعندما ذهبت أنا و جردا لنأخذ مشروباً دعونا وقد اضطرت المسكينة ان تعزف لهم على البيانو، وخرجت أنا لأستنشق بعض الهواء . نعم سنذهب جميعاً إلى هناك ـ هيا.»

وقبل أن تفهم ليجيا قصده تماما كان قد أمسك بيدها وهو يجذبها بعيداً عن البحر في اتجاه الشارع.
كانت صالة توبي في ممر يواجه الميناء، وعندما دفع روبرت باب الصالون تدفقت موجة من الضجيج إلى ليجيا . كانت المجموعة ترقص وتغني وتصيح، رأت جردا على الفور وهي تجلس أمام بيانو عتيق وتعزف ـ وقد وضع أصحاب الحفل وردة قرنفل ذابلة في عروات ستراتهم.
قال روبرت وعيناه العقيقيتان مثبتتان على الحفل وجردا :
«ياله من مشهد عائلي سعيد ! الحب على أنغام الموسيقى بين روائح الشراب وأبخرة البصل المخلل الرومانسية!»
سألته ليجيا بضيق :
«هل تسخر من كل شيء؟»
«من الجائز أنّ كلّ ما صادفني حتى الآن يجعلني كذلك.»
«ومع ذلك كنت من لحظات تردد شعر شيلي وكنت تقول إنك تحب معه كل ما هو من صنع الطبيعة.»
«هل أفهم أنّ كلّ هذا من صنع الطبيعة؟»
أشار باحتقار إلى الشراب المسكب في برك على الأرض ، وإلى مجموعات الصيادين الذين كانوا يضحكون بصوت عال ، والذباب الذي كان يقف على طبق من اللحم فوق البيانو حيث تعزف جردا بقوة. ثم نظر إليها يتحداها أن تناقشه في هذه اللحظة.
حضر آفري وهو يشق طريقه بين الجمع ويحمل صينية يرفعها عالياً عليها بعض المشروبات وغليونه يخرج من فمه كجزء متمم له.
«يا إلهي ! أيّ زحام!»
صاح عندما وصل إليهم :
«لقد طلبت مشروباً ولكنني متأكد أنهم قدموا لي شيئاً آخر.»
«لا يهم طالما أنه ليس ذلك المشروب البرتقالي العفن.»
تناول روبرت كوبين من الأكواب الصغيرة من الصينية وناول أحدهما الى ليجيا . ارتعش الكوب في يدها فقال بسخرية:

«يافا من يد صغيرة غير ثابتة ـ لا تشكي الشراب الثمين بعد كل التعب الذي
تجشمه أفري لاحضاره ـ إني أقول يا أفري إنه أحمر قليلا هل هو شراب
برتقال؟»
«إني لا أستغرب ذلك.»
قال أفري ذلك وهو ينظر حوله بوجه عابس. ثم تساءل:
«هل هذا المكان مزدحم هكذا دائماً؟»
«إنها حفلة عرس.»
قال روبرت ونغمة صوته تتناسب مع وجهه الساخر:
«إن صالة توبي وكر ساحر عندما لا يكون بها حفل عرس ـ وجردا وأنا نزور
هذا المكان كثيراً. إنها تحب الجلوس على تلك البراميل أمام البار.»
في هذه اللحظة أخذ أفري ينظر جردا وهي تجلس أمام بيانو الحانة
العتيق فكاد يسقط غليونه من فمه.
قال:
«يبدو أن سكرتيرتي تنطلق فعلا وهي معك يا بوب. عرفتها طوال أربع
سنوات وعملنا معاً عن قرب، ولكن لم أكن أتصور أنها تستطيع أن تجلس أمام
بيانو عتيق في حانة، وتعزف عليه تلك الأغاني العاطفية التي يغنيها الناس في
الأفراح.»
نظر روبرت وراءه إلى جردا ورأت ليجيا لمحة من السرور تمر بوجهه
ثم قال:
«هل ستغني لي أغنية عاطفية في حفل زواجي أيها العجوز؟»
نظر أفري اليه كأنه لا يفهم ما يدور بخلده:
«إنك لست جاداً يا بوب ـ أليس كذلك؟»
«ماذا تظن؟»
«كيف لي أن أعرف؟ جردا جميلة ـ جميلة بشكل صارخ وأتصور أنها تصلح
زوجة ومضيفة ممتازة لممثل ناجح مثلك.»
أجاب روبرت معاتباً:
«هذا التصريح ينقصه الخيال العملي. هل أنا في نظرك لا شيء أكثر من ممثل؟»

أجاب أفري بعينين متسائلتين:
«ألست كذلك؟»
«بالمصيبة! هكذا تقضي علي أن أكون؟»
حدق روبرت لحظة أمامه بنظرة ثابتة. ثم هز نفسه ليتخلص من التفكير
المكتئب. وقال:
«سآخذ مشروب جردا اليها. وبالمناسبة يا أفري. بكم أنا مدين لك ثمناً
لهذه المشروبات؟»
«لا شيء. إنها على حسابي. أنا لم أستمتع بجو المقاهي الشعبية منذ مدة طويلة.»
«هل تقضي وقتاً ممتعاً؟»
ظهر تعبير ساخر في عيني روبرت وهو ينظر الى أفري بسترته التويد وقد
وضع ذراعه خلف ليجيا ليحميها من احتكاكات اثنين من الصيادين
يضحكان بصوت عال ويقفان بجانبها. كان أفري، رغم كل رجولته
وسنوات خبرته في شارع هارلي شخصاً رقيقاً بطبعه. وكان روبرت يعلم أنه
يكره كل هذه الضجة والأبخرة المتصاعدة حوله في صالة توبي لذلك قال بشيء
من الخشونة:
«لا تبقيا أنتما الاثنان إذا كنتما تشعران بضيق. سأبلغ سلامكما لجردا.»
وعندما استدار روبرت وأخذ يشق طريقه بين الموجودين نظر أفري
لليجيا وهو يبتسم قليلا ثم سألها:
«حسناً. هل تنصرف؟»
هزت رأسها بالايجاب. وانتهيا من مشروبيهما. ولكن عندما وصلا الى الباب
وقف أفري في تردد وتمتم:
«أتساءل إذا كان بوب وجردا يحتاجان الى تقل...»
ثم نظر الى البيانو وقد أتاح له طول قامته أن يرى الأشياء من فوق غابة
الرؤوس المتداخلة. ثم سمعته ليجيا وهو يضحك قائلا:
«حلّ بوب محل جردا على البيانو ليريحها ـ يا إلهي إن هذه الأغنية التي
يعزفها قديمة.»
ارتفعت أصوات المدعوين في العرس حتى وصلت إلى حيث وقفت ليجيا

وأقري وأخذ الجميع يرددون الأغنية:

إذا شاء فليلعب وإن شاء فليغب

وإن شاء فليسبح وإن شاء فليغص

فلا هو بي راضٍ ولا أنا به راغب

سيلقى حبيباً في سواي يروقه

وألقى أنا حباً أعز وأفضل.

وبينما كانت أضواء برتشام تختفي خلف السيارة وجد أقري نفسه يردد الأغنية التي كان يعزفها روبرت ثم صاح فجأة:

«بوب شخص غريب الأطوار، ما الذي جعله يتذكر تلك الأغنية الساخرة مباشرة بعد تلميحه عن احتمال زواجه».

ثم ضحك أقري بسخرية وأضاف:

«هذا لا يعني أني آخذه مأخذ الجد. صحيح أن جردا فتاة جميلة جداً ولكن لابد أن هناك كثيرات مثلها في حياة بوب الفنية - إنهن كالدمى بالنسبة اليه. إنه لا يتزوج أياً منهن».

تدخلت ليجيا لتقول في هدوء:

«من الجائز أنه يحب جردا».

«بوب يحب! حاشا الله أن يفعل ذلك! إن اعتقادي الشخصي أنه ليس بالشخص الذي يمكن أن يسعد امرأة حتى لو كان يحبها. إنك تخشينه أليس كذلك يا عزيزتي؟»

«أخشاه!»

نظرت نظرة عصبية جانبية سريعة الى أقري الذي كان يمكن أن تميزه بصعوبة في ضوء لوحة السيارة.

«ماذا أخشاه؟»

أجاب وهو يفكر:

«أظن أني أعرف. أظن أن بوب يذكرك عن طريق عقلك الباطن بالشخص الذي تهربين منه. أعتقد أن هذا حدث من البداية منذ أن قابلنا لأول مرة في تشيز».

توقفت السيارة ورأت ليجيا ادراج تشيز الحجرية وقد ترك الزمن علاماته عليها. ورأت النوافذ المقسمة تومض من بين أوراق اللبلاب المتسلق على الجدران ورأت الشرفة الواسعة وتذكرت اليوم الذي سخر فيه روبرت منها بطريقة مهينة فسقطت على الشرفة وتبعثرت الاغراض يميناً ويساراً.

«إنك تعلمين أني على حق - أليس كذلك يا ليجيا؟»

أمسك أقري بيديها وكانت أصابعها كقطع الثلج.

«ماذا إذا شعرت أنه شخص مخيف في أول مرة قابلته؟ ولماذا قلت إن شيئاً ما فيه يخيفك؟ إن الجواب واضح أليس كذلك؟»

كانت أشجار الصنوبر تتهامس وطار خفاش كبير أمام أضواء السيارة القوية. نعم لقد قالت إن روبرت يخيفها. كانت هذه كلماتها وكانت تعنيها. ولكن هذه الكلمات نفسها - لسبب غير مفهوم - تحيرها الآن. أصبحت هذه الكلمات لا تعني شيئاً بالنسبة اليها. وكل ما تتذكره هو نظرة روبرت التائهة الخالية من أي معنى هذه الليلة. عندما قال لأقري «هل أنا في نظرك لا شيء سوى ممثل». تحركت أصابعها بقلق بين أصابعه وهي تقول:

«أقري ... أريد أن أعرف منك شيئاً. هلاّ أخبرتني عن كيفية موت والد روبرت ووالدته».

«كنت أظن أنك علمت يا ليجيا! ماتا في حادثة يخت في جزر البهاما».

لاحظت نبرة الاستغراب في صوته وكانت تعلم أنه يسأل نفسه عن العلاقة التي يمكن أن توجد بين موت عمه وعمته من زمن بعيد والظروف الخاصة بفقدانها الذاكرة. ومع ذلك مال للوراء في كرسيه وقد حجبت الظلال وجهه وأخذ يسرد عليها تلك المأساة العائلية القديمة:

«كان حادثاً من المفروض ألاّ يقع تحت أيّ ظرف. كانت هناك عاصفة عاتية وأصرّ والد بوب على الخروج باليخت برغم رفض البحارة رفضاً باتاً إخراج اليخت وأكدوا له أن خروجه يعني الانتحار ولكنه لم يلق بالاً لكلامهم - وأخذ اليخت وخرج به فاصطدم بصخرة في العاصفة وانقلب وغرق هو و كارمليتا. أما البحارة الأربعة الذين كانوا فوق اليخت فقد نجوا بأعجوبة - وقد أجمع هؤلاء الرجال عند سؤالهم في التحقيق أنه لم يمكن التفاهم مع ستيفن تشيز في

ذلك اليوم وأنه كان قد انغمس في مشاجرة من مشاجراته الكثيرة مع زوجته قبل أن يقرر الخروج باليخت ببضع ساعات».

توقف أفري لحظة وعندما استأنف قصته كانت نبرة الكآبة في صوته قد ازدادت عمقاً.

«لقد اتفق الرجال الأربعة على أنه رغم أن الزوجين كانا كثيري الشجار إلا أنهم لم يسمعوا كارملينا تهدد زوجها بتركه سوى في هذه المرة فقد قالت له: بأنه لا أستطيع أن أعيش مع شيطان - إن الحياة معك جحيم وأنا أفضل الموت على هذه الحياة».

همست ليجيا:

«وهو؟ ماذا قال؟»

تحرك أفري في الظلام وشعرت ليجيا بأصابعه تضغط على أصابعها.

«ماذا قال ستيفن؟ طبقاً لقصة هؤلاء الأربعة التي لم يكن هناك أي سبب للشك فيها، قال إنه يوافقها تماماً وإن من الأفضل أن تتركه».

مرة أخرى طار خفاش ناحية أضواء السيارة كما لو كان فراشة كبيرة تغمس جناحيها في اللهب. وبينما كانت ليجيا تراقبه خطرت لها فكرة أن كارملينا تشيز ماتت كما تموت الفراشة فقد دمرها الشيء الذي لم تكن تستطيع مقاومته.

ثم قالت:

«وعلى ما أظن أن قصة هذا الحادث نشرت في الصحف.»

«نعم. كان ستيفن تشيز فتى مجتمع معروفاً كما كانت كارملينا راقصة مشهورة قبل زواجها. وكانت جميلة جداً. رأيتها مرات عدة هنا في تشيز. كانت سمراء عاطفية المظهر كزهرة غريبة. وأنا أذكر أني حزنت عليها أيما حزن عندما علمت بموتها. فلم يكن معقولاً بالنسبة الى عقل طفل في الثانية عشرة من عمره أن إنساناً في مثل هذه الحيوية والجمال يمكن ان يموت كلعبة انكسرت فجأة».

تنهد أفري ثم استرسل بصوت خفيض:

«آمل فقط أن تكون جوديا واعية لما هي مقدمة عليه لأني أخشى أن يعيد التاريخ نفسه فهذا ما يحدث في عائلتنا بطريقة غريبة».

٥ - نداء المستنقعات

كان جو الخريف الساحر يغلّف منزل تشيز ويشيع فيه حالة من الحلم. وكانت الشمس قد مالت الى المغيب واطلقاً آخر قبس من أشعتها الحمراء الذهبية وحلّ الشفق كغلالة رمادية على المنزل.

كانت ليجيا تجلس على حائط الشرفة المنحدرة بحالة النهر، والظلال المتجمعة تزيد من وحدتها وهي ساكنة كأنها تجلس أمام رسام.

كان اليوم الأربعاء وفي الغد سيذهب أفري الى بليموث لحضور مؤتمر طبي حيث سيقابل طبيب العظام الكندي المشهور ماكس بيتس الذي كان متلهفاً لمقابلته. وأسرّت مسز تشيز لليجيا الليلة الماضية أنه طُلب من أفري أن يتكلم في المؤتمر عن أبحاثه الخاصة بالنسبة الى علاج الروماتيزم.

فجأة سمعت ليجيا فرقعة حذاء نسائي على الشرفة أخرجتها من عزلتها. أدارت رأسها فرأت جوديا قادمة وفي يدها اليمنى سيكارة مشتعلة. وعندما اقتربت من ليجيا كانت تنفض سيكارتها بحركة حادة غاضبة على أرض الشرفة.

«يا إلهي! كم أنا مسرورة لأني خرجت من تلك المكتبة: إنها حجرة كريهة للسبل - ألتني لم تسمع أفري نصيحتي وقام بطلاء الجدران بلون أبيض زاه بدلاً من ذلك اللون الداكن القديم. قد يستمع إليك يا ليجيا».

قالت وهي تضحك قليلاً:

«أظن أن طلاء الحائط ـ بشكله الحالي ـ جميل . لابد أن عمره مئات السنين »

قالت ليجيا :

«كل شيء في هذا المنزل قديم . ضارب في القدم».

مرة أخرى نفضت جريا سيكارتها على الأرض وشعرت ليجيا بعيني جريا الزرقاوين الخضيبتين تنظران إليها وتتفحصانها ثم قالت لها:

«ماذا أعددت للمستقبل ؟ وهل أدخلت أفري في حساباتك؟».

في لحظة تغيرّ وجه ليجيا وضاع شعورها بالمتعة والتأمل في جمال أمسية الخريف ورقة أشجار الصنوبر ورشاقة المنزل القديم.

«كيف أخطط أو أفكر في المستقبل إذا كنت لا أعلم شيئاً عن الماضي؟».

«إذن قولي لي شيئاً آخر . هل كنت تنوين الهروب من تشيز ذلك المساء عندما جرح بانكر ؟».

«ماذا تظنين ذلك ؟».

قالت ليجيا وقد التقت عيناها بعيني جريا :

«لقد عدت .»

«نعم لقد عدت ؟»

سحبت جريا نفساً من سيكارتها ثم قالت :

«من ذلك الذي لم تطيقي البعد عنه . روبرت أم أفري ؟»

ابتسمت قليلاً وهي تسمع ليجيا تشهق واضافت :

«هربت ثم عدت وأنت تحتضرين الكلب . وكان منظرك مريعاً عندما رأيتك في الردهة. كما لو كنت قد طعنت في عينك».

قالت ليجيا وهي تلهث:

«بالطبع كنت مضطربة. فما من أحد يحب أن يرى حيواناً يتألم».

«وخاصة حيوان روبرت أليس كذلك ؟ على أية حال أريد أن أضع أمامك النقط على الحروف. من الجائز أن روبرت شعر بالامتنان لك لأنك حملت ذلك الكلب الذهبي الكبير إلى المنزل. ولكن إياك أن تتصوري خطأ أن هذه اللحظة من الامتنان ستؤدي الى أبعد من ذلك. إن طراز الفتيات التائهات في المستنقعات لا يمكن أن يعجبه ».

«ما بي من شغف لارضائه».

قالت ليجيا وهي تكاد تهوي عن الشرفة من فرط شعورها بالاهانة. ثم وقفت ملتصقة تماماً بالحائط وردت بعصبية:

«كيف تتفوهين بذلك! أنت تعلمين كما أعلم أنا كيف يبغضني وقد سمعت كل ما قاله لي في غرفة الاستقبال».

سألتها جريا بعد تفكير عميق:

«هل لك أن تذكري لي ما قاله لك مساء السبت ؟»

ولما لم تجبها ليجيا اقتربت منها ورائحة عطرها تسبقها وقالت :

«استمعي إليّ جيداً. ليتنا نتكلم صراحة معاً. استطعت الايقاع بأفري في شباكك وهو أكبر غنيمة في هذه المنطقة. ولكنني لن أتركك تستحوذين على روبرت في الوقت نفسه. إني لأعجب ماذا بك من إغراء للرجال! ولكنني أحذرك من محاولة اصطياد روبرت . وإذا كنت تعتبرين كلامي هذا تهديداً فحذار والا فسأتصرف معك بالطريقة نفسها».

كان مظهرها في تلك اللحظة يؤكد أقوالها . وكان كرهها الشديد لليجيا يبدو واضحاً في عينيها الزرقاوين.

«هل تعتقدين أني لم ألحظ هدب عينيك يرف لروبرت لأغرائه! لاحظت ذلك جيداً. وإذا كنت تعتقدين أن روبرت عندما يلتهم الطعم الذي تقدمينه له سيكتفي بالمغازلة الرقيقة والحديث المهذب مثل أفري فأنت مخطئة ـ إن روبرت من طراز آخر يختلف عن أفري وهو لا يقبل أن ترفض طلباته».

ضحكت ضحكة ذات مغزى ثم رفعت يدها تتحسس شعرها الذهبي المعقوص بحركة مقصودة فانطلقت رائحة عطرها المميزة وظهر جمال جسمها المغري.

«إنك طبعاً تفهمين أني أتكلم عن خبرة. ولي حقوق عليه مقدمة على حقوقك ومن ثم فإن لديّ ما يبرر استيائي من اهتمامك بروبرت »

«أنا..أنا لست مهتمة».

أنكرت ليجيا وتراجعت بعيداً عن جريا وأثارت أقوالها وحركاتها اشمئزازها.

أريد فقط أن أتذكر من أنا وأن أعود من حيث أتيت.»
المستنقعات ؟ لقد أتيت من المستنقعات . أليس كذلك؟»
همس الريح لأشجار الصنوبر وشعرت ليجيا بالوحدة المؤلمة. كانت جردا
تتحدث بسخرية عن المستنقعات ولكن أليس من الجائز أن المستنقعات تحلّ سر
شخصيتها المفقودة؟
ماذا لو كانت هذه المنحدرات الساكنة حيث يصيح الكروان فوق نباتات
الشيحان تحمل سرّ ماضيها الضائع الذي ينتظر أن تبحث عنه؟
انطلق صوت الجرس النحاسي من داخل المنزل . قالت جردا:
كانت الطريقة التي حضرت بها إلى هنا غريبة كأنها مشهد من رواية - كان
ضوء يصفر في تلك المستنقعات . ثم ظهرت بحذائك المسرحي . والآن مضى
عليك أكثر من شهر هنا ولم يبلغ عن اختفائك أحد وهو أمر غريب . وهكذا بقيت
تحت مسؤولية أفري كلقطة مفقودة.»
استمرت كلمات جردا تدور في رأس ليجيا وتؤرقها أثناء تناول العشاء
وتبعها في غرفة الاستقبال. أما جردا فقد استعارت سيارة أفري الصغيرة.
قالت السيدة تشيز:
«لا بد أنها ذاهبة لرؤية روبرت.»
أغلق أفري أبواب غرفة الاستقبال ووقف مستندا بظهره وابتسم وهو يهزّ
رأسه موافقاً.
قالت السيدة تشيز بحدة:
«أنا لا أريد أن يتزوج روبرت هذه الفتاة. إنها جميلة ولكن أفقها محدود.»
ورد أفري:
«إنها لم تنس بعد شقة عن ذهابها الى مكتب سجل برتشام للتزوج.»
ثم ضحك وذهب الى الأريكة وأدار الراديو فسبحت الغرفة في جوّ من
الموسيقى الراقصة . مدّ أفري يده الى ليجيا على غير توقع:
«هل تجيدين الرقص ؟ ألا تجرّبين ؟»
«لا. ما أظن أني أجيد الرقص.»
تراجعت بعيداً عنه. واستمرت السيدة تشيز تقول وبالها مشغول بروبرت

«من المؤسف أن المسرحية التي كان يمثلها انتهت . هل تعرف يا أفري متى
تبدأ البروفات للرواية الجديدة؟»
«يقول إنها ستبدأ بمجرد العثور على فتاة - تمثل ابنته - مقبولة من جمهور المسرح
- وأظن أنه يقصد الجمهور النسائي - يجب أن يكون عمرها عشرين عاماً وفي
الوقت نفسه تبدو كبنت الخامسة عشرة.»
قالت السيدة تشيز على الفور:
«طبعاً . الفتى لم يتجاوز الرابعة والثلاثين كما أنه يبدو على المسرح أصغر سناً.
إذاً فهو يلعب دور الأب أخيراً ؟ هذا يجعلني أتساءل إذا كان اهتمامه المفاجيء
بجردا نوعاً من الدافع النفسي لأن يصبح أباً حقيقياً. يجب أن يجعل الحقيقة
تبدو واقعا محسوساً كما يقول.»
«يا جدتي. الالحاح لأن يصبح أباً عادة له أسباب بيولوجية. ولكن لا أظن أنه
حتى الممثل الذي ينشد الكمال مثل روبرت ، يجشم نفسه مشقة الزواج ليتقن
شعور الأبوة في التمثيل. وعندما أقول مشقة الزواج ، فأنا أتكلم من وجهة نظر
روبرت فقط في الزواج، والتي لم يخبرها على وجه التأكيد رغم ما قاله ذلك
المساء.»
سألت السيدة تشيز بحدة:
«ماذا قال ؟»
«رددّ كلمة العرس وهو ينظر لجردا.»
«أه !»
فكرت السيدة تشيز في ذلك لحظة ثم فجأة غيرت موضوع الحديث:
«وأنت هل فكرت في واجبك تجاه اسم تشيز - إنك تبلغ السادسة والثلاثين
وإذا تركت الأمر ليضيع سنوات أخرى فإنك ستعتاد حياة العزوبة لدرجة أنك لن
تطيق أيّ امرأة بجانبك.»
وبينما كانت السيدة تشيز تعبر عن آرائها كانت نظرتها تتجه الى ليجيا
التي كانت تستند إلى باب الشرفة وأفراد قدمها كلفتاة صغيرة يحلو لها أن تقضي
وقتاً في التأملات.
تتبع أفري نظرة جدته واتجاه تفكيرها:

تواظبين ؟»
- إنها أنثى، وصحتها جيدة رغم أنها تبدو كقطة جائعة .»
ضعت السيدة العجوز نظارتها ذات الاطار الذهبي فوق أنفها واستمرت

ل
رجل وسيم يا أفري ولن تجد صعوبة في الحصول على ما تريد.»
ولكنه هز كتفيه ودفع قطعة خشب في المدفأة بقدمه :
وسامة ليست كل شيء يا جدتي .»
هذا تقول لي يا أفري وأنا سيدة طاعنة في السن. الرجل الوسيم يستطيع
دائماً الحصول على ما يريد ولكن ليس بالضرورة أن يدفع ثمن ذلك خلقاً كريماً
ن لك أجداداً لم يكونوا على خلق يا ولدي - يمكنك أن تتفوق عليهم.»
م هل تقصدين أن اتفوق على بوب ؟»
ابتسم قليلاً ثم اتجه ناحية أبواب الشرفة:
وإنك تفكرين بعمق يا ليجيا .»
ابتسمت له :
رائحة الحديقة جميلة. أتمنى أن أضع هذا العطر في زجاجة وأسميه رائحة
الخريف . إنه سيذكرني بتشيز طوال حياتي.»
اختفت ابتسامتها ثم أخذت تخطو على الشرفة كأنها تريد أن تهرب فجأة من
خاطر يقلها. ثم وقفت بجانب الحائط وسار أفري وراءها ووقف معها بجوار
الحائط . كانت الظلال والروائح الجميلة تقلقها كالعادة . وسرت إليها أنغام
الموسيقى من غرفة الاستقبال.
همس أفري :
«تشيز تبدو أكثر جمالاً في الشتاء عندما يغطي الحديقة بساط من الثلج وتتجمد
أغصان الشجر.»
قالت ليجيا بسرعة بدون أن تنتظر:
«لن أكون هنا عندما يأتي الشتاء.»
لمس أفري كتفها برقة قائلاً :
«ليس من الضروري أن تذهبي يا ليجيا . إننا نفترض أن لك زوجاً أو خطيباً

فالخاتم الذي حول أصبعك يشير إلى ذلك. ولكن الاحتمال الغالب أنه كان لك
خطيب وأنك اختلفت معه. إن مشاجرة عاطفية قد تؤدي إلى رغبتك في نسيان كل
شيء يرتبط به.»
«ليت الأمر بهذه البساطة : كم أود لو أنه كذلك.»
خيل إليها أن جريا تقف بجانبها مرة أخرى كشوكة وخيلة بفستانها الجرسيه
الأزرق وهي تقول بصوتها الأجش من الغريب أن أحداً لم يبلغ بفقدك وتركت
كحقيبة مفقودة تحت مسؤولية أفري ... كانت جريا على حق ! فعندما
يتغيب أحد الناس عن منزله تثور دائماً ضجة كبيرة فيهرع الأقارب للشرطة
ومعهم صور وأوصاف وكل أنواع المعلومات. ويسأل الأصدقاء والمستشفيات
وأحياناً مقر العمل. ويتم العثور على الشخص المفقود في ساعات قليلة أو أيام.
ولكن ليس من المعتاد أن يترك المفقود كما تركت هي لدى شخص غريب لو كان
هناك من يهتم بها.
«ذلك الخاتم السخيف على سبيل المثال ! كيف حصلت عليه ! هل سرقتيه؟
«كفي عن ذلك !»
نهرها أفري :
«إنك لست سارقة ولكن إذا بدأت تفكرين بهذه الطريقة فسيحل بك المرض ،
وسأضطر أن أجعلك تلزمين الفراش وأفرض عليك نظاماً غذائياً من الكستره
والبيض المسلوق ! هل ترغبين في ذلك؟»
رفع وجهها إليه فرأى اضطراب أهدابها السوداء وارتعاش شفتيها. أيقظها لحظة
ثم تركها قائلاً :
«لن أعتذر هذه المرة . ولك أن تنحي باللائمة على أزهار أبو خنجر والتشيز.»
لم تنم ليجيا جيداً تلك الليلة فقد جفاها النوم لساعات طويلة. وفي ساعة
مبكرة جداً ، سمعت أفري ينصرف بسيارته فنهضت بسرعة من فراشها لترى
في أي مناخ سافر أفري إلى بلمبرت. كان الضباب الكثيف يغطي الحديقة
وسمعت أصوات الطيور تصدح في الضباب. اقشعرت ليجيا وضمت ذراعيها
إلى صدرها.
في الليلة الفائتة قالت لها جريا لقد أتيت من المستنقعات . وهنا الضباب

وصلت ليجيا إلى هذا القرار ستذهب اليوم إلى المستنقعات لترى إذا كانت تستطيع أن تجد مفتاح السرّ لشخصيتها.

عندما انسلّت خارجة من المنزل حوالي الساعة الثانية والنصف بعد ظهر ذلك اليوم، كان صوت الآلة الكاتبة التي تطبع عليها جريا في غرفة المكتب يكثف السكون الذي يغشى باقي الغرف، وكان الجزء الخاص بالسيدة تشيز هادئاً تماماً لأنها كانت دائماً تستريح بعد الظهر. زررت ليجيا سترتها بأصابع باردة عصبية وانصرفت مسرعة عبر فناء تشيز.

لم تكن هذه أول مرة تخرج فيها إلى الحديقة منذ وصولها الى منزل تشيز، ولكنها لم تتخطَّ من قبل نهايتها التي تحددها الأشجار إلى حيث يظهر فجأة بحر من الأعشاب الطويلة والأشواك الكثيفة، ولا يسمع بعد الصوت المألوف لسقوط ثمار البندق من أشجارها، والأوراق الصفراء من أشجار البتولا الفضية الجميلة في حديقة تشيز.

عندما وصلت الى منطقة عالية مسطحة تكسوها الحشائش وفي أعلاها شجرة صغيرة من أشجار العليق، تبدو ثمارها الحمراء زاهية تحت أشعة الشمس التي تسطع في ترباب متقطعة على المستنقعات، كوّرت نفسها على الحشائش تحت الشجرة وأسندت رأسها الى جذعها الرمادي الناعم. لم تكن ليجيا تعلم أي نوع من أشجار العليق كانت هذه الشجرة، ولكنها فقط شعرت أنها شجرة طيبة في هذه البقعة المعشبة التي كانت تبدو وكجزيرة خاصة بها وسط أعشاب الخلنج. ابتسمت ابتسامة فاترة. أوه، كم كانت حمقاء عندما كانت خائفة... المستنقعات في ضوء النهار مختلفة تماماً عما كانت تبدو تحت ضوء القمر الشاحب وهو يجر شعره كالساحرة في السماء المعتمة. أما الآن فإن السماء تبدو كخلفية ضبابية يخفق الكروان أجنحته فيها وهو يطير ويطلق صيحته المألوفة.

ارتخت أعصاب ليجيا على غير وعي منها، وفي لحظة كانت قد أغرقت في النوم ولم تشعر عندما جاء أحد الطيور والتقط ثمرة حمراء من الشجرة.

وكما أغرقت في النوم فجأة فقد استيقظت فجأة، وهي تظن أنها نامت لحظات. ولكن أطرافها الباردة والألم في عنقها وكتفيها المتخشبين أنبآها بغير ذلك. نظرت ليجيا حولها فوجدت السماء وأرض المستنقعات وقد أعتم لونها، فتأكدت أنها

نامت لبضع ساعات، وبينما هي تفكر في ذلك وتدعك رقبتها المتخشبة سمعت صوتاً يقول:

«نعم يجب أن تستغرقي في النوم تحت هذه الشجرة من العليق. مناسب تماماً».

أدارت ليجيا رأسها بعنف فرأت على بعد أقدام منها روبرت تشيز واقفاً. لم يكن يلبس قبعة وكان شعره الأسود يطير في الهواء الذي كان قد اشتد بشكل ملحوظ أثناء نوم ليجيا. وكانت على فمه ابتسامة غريبة جداً وهو يقترب منها، ومع ذلك عندما مد إليها يده ليساعدها على القيام لم تتجنبها بل أمسكت بها.

«أوه - إن جسمي متخشب».

أمسك بها وبوجه هادئ، أخذ يدعك ساقيها ليجري فيها الدم. ثم قال وسيكارته تطل من جانب فمه وتلقي بدوائر الدخان اللاذع في عينيها:

«أليس هناك ما يكفيك من الأسرّة والأرائك في منزل تشيز؟»

نظرت إليه بعينين ناعستين ولم تناقشه في رغبته الجامحة أن يتملكها بينما كانت يداه تدعكان قدميها مما أعاد إليها حركتها الطبيعية.

سألته:

«ألا ترى أنه من المناسب أن أنام تحت شجرة العليق؟»

أخذ يراقبها بعينيه الضاحكتين:

«شجرة العليق هذه هي شجرة المرأة الساحرة».

«أوه!»

نظرت إليه بعينين تجلاوين متألمتين قليلا وشعرت بغرابة الوضع فقالت بارتباك:

«لست امرأة ساحرة يا سيد تشيز».

«ألست كذلك يا ليجيا؟»

ضحك بصوت خفيض:

«كنت أستطيع أن أقسم أنك شيء غير حقيقي - شخصية خيالية - تلقين السحر حولك، هل قدماك أحسن حالا الآن؟»

«أجل، أحسن حالا».

«هذا جميل والآن أخبريني لماذا جئت إلى المستنقعات بمفردك والساعة تقترب من الخامسة.»

«أوه . هذا غير معقول !»

نظر إلى ساعته وقال :

«الوقت بالضبط الخامسة إلا سبع عشرة دقيقة.»

«إذن فقد تمت أكثر من ساعتين .»

«نعم هنا في هذا الجو وأنا أظن أن السماء ستمطر حين رأيتها مليئة بالسحاب ، كالقوات العسكرية التي تتجمع للحرب.»

نظرت إلى حيث أشار إلى السماء فرأت الرياح مثل قائد فرقة حربية ، يحشد السحب الرمادية الصغيرة في تشكيلات تأهباً للسير، وكان حتمياً أن تتجه إلى هذه البقعة. وتأكدت ليجيا أن السماء ستمطر كما قال روبرت .

«لم تجاوبي على أسئلتي عن سبب وجودك بمفردك في المستنقعات.»

«جئت لأعثر على نفسي. ظننت أني قد أتذكر شيئا هنا في المستنقعات.»

«وهل استطعت ؟»

والآن لم تكن عيناه ساخرتين بل كان بهما تعبير من القلق . هنا تحت شجرة العليق التي تشتعل بثمراتها الحمراء ، والسحاب يلقي ظلاله عبر السماء . كانت هذه الفتاة جذابية محيرة تداعبه بعنف . كما كانت تبدو صادقة وعزلاء، مما حرك مشاعره رغماً عنه .

«تعالي إلى الكوخ - سأقدم لك الشاي وستسلمين على بانكر .»

كان يراقبها وهو يتكلم ويرى حيرة عينيها.

«كوخك ؟»

قالت بنبرة غريبة وكأنها لا تصدق ما سمعته :

«لا ... لا أظن ...»

«لا تظني شيئاً يا ليجيا .»

قاطعها وهو يبتسم :

«فقط اتبعي مشاعرك التلقائية . سيكون هذا أفضل لك . كما أني أظن أنك ستعجبين بكوخي .»

عند بدء فجأة ليسقط عليها المطر فرأى كلاهما نقطة مطر كبيرة .

«الآن يجب أن تعودي معي وإلا ستبتلي تماماً . لسنا بعيدين عن كوخي ولكن تشيز أبعد كثيراً.»

سمعت المطر يتساقط على أوراق شجرة العليق وشعرت برغبة في أن تكتشف دخيلته . قالت :

«أظن أنه يجب أن أعود معك .»

وعندما ضحك نظرت اليه فوجدت أن وجهه يشبه تماماً ذلك الوجه في صورته الموجودة في تشيز وجه قاس وأسمر وتنعكس منه مرارة داخلية لا يُعرف سببها.

«طبعا يجب أن تأتي لأنه لا فرار من المحتوم - أليس كذلك يا ليجيا ! إن كلا منا يشعر بحب استطلاع غامر بالنسبة للآخر ولن تستريح حتى نرضي فضولنا - هيا.»

أمسك يدها وفجأة كانا يركضان معا تحت المطر وأصابعه تطبق على يدها. أخيراً وصلا للمدخل الحجري المسقوف لكوخ روبرت وهما يلهثان والمطر يتساقط من وجهيهما. كان الكوخ وحيداً على حافة أيكة من أشجار البلوط القديمة وبعض أشجار الدردار الكثيبة وأشجار الأرز المتشابكة.

نفض روبرت المطر عن وجهه بكم سترته ودفع باب الكوخ ففتحه.

«هيا ادخلي . هل تسمعين بانكر ؟»

ثم رفع صوته مخاطبا كلبه بانكر :

«كل شيء على ما يرام أيها المغفل بانكر - كف عن النباح ولا تدعي أنك تقوم بالحراسة . من هنا يا ليجيا .»

فتح باباً جانبياً في المدخل الصغير المعتم . فانتشرت موجة من دفء خشب الدردار المشتعل في المدفأة ناحية ليجيا وجاء معها بانكر وهو سعيد بتعرفه عليها وقوائمه تضرب بقوة على كتفيها وهو يضحك لها ويلعق حبات المطر عن خديها.

أشعل روبرت مصباحين كيروسين فأضاء النور الغرفة ولكنه لم يصل تماماً إلى كل العوارض الخشبية في سقف الغرفة.

نظرت ليجيا حولها وهي مندهشة لوجودها في هذا المكان . كانت تضع

ذراعها على رقبة بانكر وهي تحتسي بطريقة لا شعورية بفضوله الوثني كدرع يقيها مواجهة ما قد يكون باقياً من عداء لها وراء ابتسامة روبرت وهو يراقبها. أعجبتها الغرفة أيما إعجاب.

الكراسي السوداء طويلة من الخشب المجدول صممت للاسترخاء وعليها وسائد من الطبقة الحمراء الداكنة. وعلى بوفيه عتيق، نحتت أبوابه بدقة فبدت كالدانتيل الغامق، وضعت دوارق تلمع وتلمع. وكانت الجدران البيضاء تزدان بعديد من القطع النحاسية الغريبة. وعندما أغلق روبرت الستائر سحرها شكل الستائر الحمراء الذهبية الدمقسية وهي تعكس لونها الأحمر الذهبي على الأواني النحاسية والقصديرية وأيضا على شعر بانكر الجميل.

سألها روبرت :

«ما رأيك ؟»

«أعجبني كثيراً. لا شك أنك تنتمي إلى كل هذا الأحمر الذهبي والأسود ومضات الأحمر الياقوتي الداكن».

«تقصدين سحر المسرح؟»

ولكنها كانت تفكر أن كلّ هذه الألوان كانت تشكل خلفية صورة ما وكانت تميل الى الاعتقاد بأنه يعرف ذلك أيضاً نعم إنه يعرفه، إنها تستطيع أن تؤكد ذلك من التعبير الساخر على فمه وهو قادم نحوها ومن الطريقة المتعجرفة التي لا يمكن إنكارها حين قام بسحب سترة التويد عن كتفيها النحيلتين.

«إنها في غاية البلل. هل قدماك مبتلتان؟»

«لا ! لا أن قدميّ على ما يرام !»

وبشيء من الفزع لمت قدميها تحتها خوفا من أن يقرر خلع حذاءها أيضاً.

«إني أبدو كالقرد، أليس كذلك ؟»

ابتسم ابتسامة عريضة وهو يفرد السترة على مسند جلدي ويدفعه أمام النار.

«هل ذهب الى بليموث اليوم ؟»

هزت رأسها بالإيجاب وهي تعلم أن جردا لا بد أخبرته بذلك عندما كانا معاً في برتشام الليلة الفائتة. أخذت تربت على رقبة بانكر الناعمة الذهبية وهما تتأملان وهج النار الأحمر. لن تكون جردا سعيدة بحفلة الشاي التجانية هذه

ستغضب بشدة وتقول كلمات فظّة ومنفرة.

«يجمل بي أن أحضر لك ذلك الشاي الذي وعدتك به. هل أنت جائعة؟»

«لماذا تسأل ؟»

«أود أرجوك أن تجربي حتى أريك مهارتي في إعداد الطعام. سأعد عجة بيض ومعها عش غراب فقد وجدت بعضاً منه في الأيكة خارج الكوخ صباح اليوم - هل تعجبك هذه القائمة؟»

«إني أحب عش الغراب».

«إن له وهو يُطبخ رائحة جميلة لا تضاهيها أي رائحة. أليس كذلك؟»

ابتسم ابتسامة صبيانية ثم اتجه ناحية الباب. وعندما وصل الى الباب استدار ونظر إليها وهي تجلس نحيلة صغيرة على البساط الذهبي الأسود وقربها بانكر كأنه لعبة ذهبية كبيرة.

«ليجيا، لماذا تظاهرت بعدم حب بانكر يوم كنا في تشيز؟»

نظرت للكلب وهي محرجة.

«أنا أحب بانكر، أحبه جداً».

«آه، إني أفهم تماماً».

قال بصوت ضاحك :

«أما أنا فلا حبّ عندك لي».

«كنت قاسياً جداً في ذلك اليوم».

نظرت إليه نظرة ساخطة - أدهشها بانكر فقد أخذ في تلك اللحظة يلعق ذقنها بلسانه الخشن الكبير.

أنبه روبرت :

«كفّ عن ذلك يا بانكر ! أبق لسانك لنفسك».

«لا تنهره، إن لسانه لا يؤذيني».

قبلت ليجيا رقبة الكلب لتطيّب خاطره.

«الشاي فقط هو الذي يستطيع ذلك، أليس كذلك يا ليجيا ؟»

وجهت نظرها إليه بحدة قرأت على وجهه تلك الابتسامة التي كانت على فمه في المستنقعات عندما جذبها من الحشائش. تلك الابتسامة الغريبة المبهمة

الشرفة.

خرج وأغلق الباب. فغمرها مرة أخرى اعتقاد غريب بأن هناك دافعاً وراء هذه الدعوة إلى الشاي. شعرت بالانزعاج وقامت على ركبتيها كأنها تنوي الهروب على الفور من الكوخ. ولكن بانكر أخذ يئن ويرفع رأسه نحوها كأنه شعر بانزعاجها.

«أوه يا بانكر، ماذا أفعل الآن؟»

ظننت أن المستنقعات تناديني ولكن هل كانت المستنقعات حقاً هي التي تناديني؟»

٦ - المطر ليس ابرد من صوته

بعد الساعات التي قضتها ليجيا في مستنقعات ديفون شعرت بالجوع بمجرد أن شمت رائحة عش الغراب المشوي الآتية من المطبخ. وتناولت هي وروبرت طعامهما على مائدة مطوية أخرجها من دولاب تحت السلم الحلزوني الضيق.

كانت العجة خفيفة ولذيذة، وعندما سألت ليجيا روبرت كيف تعلّم الطهي هز كتفيه وقال إن أغلب العازبين يجمعون هذه المعلومات، كما تجمع السيدات التحف الغريبة الصغيرة. ثم ابتسم ابتسامة رقيقة والتفّ حول المائدة وسكب بعض الشراب في كوب بجانب طبقها وقال:

«يجب أن أكون مضيفاً كريماً، ولا أريد أن يساء فهم دوافعي.»

رفعت نظرها إلى وجهه الأسمر الغامق وهو يرتدي فانلة من الصوف سوداء عالية الرقبة. وتذكرت ما قاله آفري أنه يذكرها بطريقة لا شعورية بالشخص أو الموقف الذي أرادت الفرار منه.

تحركت عيناها البنفسجيتان بسرعة متجولة على وجهه الأسمر. ورغم أنها لم تشعر بانفراجة ضوء مفاجئة تبدد العتمة التي دخلت فيها منذ فقدت ذاكرتها. إلا أنها شعرت فجأة بأنها متأكدة من صحة ما قاله آفري فمنذ لقائها في أول مرة في تشيز - كما قال آفري - ربطت في عقلها الباطن بين روبرت وبين ما تحاول الفرار منه. وكان يخيفها لأنها كانت تعلم طوال الوقت أن شيئاً ما فيه قد

بجزّ ذاكرتها ويبعدها من المكان المسحور الذي دخلت فيه أو الملجأ الذي لجأت إليه لتهرب من ذكريات شيء ما تجهله.

قال روبرت :

«ظننت أن هناك دافعاً آخر وراء دعوتك للشاي . أليس كذلك ؟»

سألته وهي تمسح فمها بعصبية :

«أليس هذا صحيحاً ؟»

أجاب ببساطة :

«نعم ، كنت أشعر بالوحدة .»

«أوه ؟»

صعد هذه الآهة ساخراً وهو يفتح عينيه بحدة :

«ألا تعتقدين أنني احس دائماً بهذا الشعور الانساني ؟»

كان يتكلم بسخرية ولكن ليجيا رأت في عينيه نظرة خجل وتحققت من أن هذا الاعتراف لا يصدر منه الا نادراً. شعوره بالوحدة كان بشكل عام سراً خاصاً به . وحين أفضى اليها بهذا السر لمس وتراً حساساً في مشاعرها.

ابتسمت وقالت :

«أنا أعتقد أنك تستطيع أن تكون لطيفاً مثل أنزي عندما ترغب في ذلك.»

قال وابتسامة ساخرة تداعب فمه:

«يا عزيزتي لا أظنّ أننا سنتناقش لطفي فأنا لست لطيفاً.»

عاد إلى كرسيه وجلس عليه. نظرت اليه ليجيا وتناولت كوب الشراب فأخذ يراقبها وهي تأخذ منه رشفة . وقد بدا أن مذاقه الجاف اللاذع لم يعجبها. ولاحظ تحول ذراعيها وكيف كان جلدها يعكس لون عينيها الأرجواني الشاحب.

«أيتها الطفلة الغريبة ! كنت قاسياً عليك في مناسبات عدة . لماذا لم ترفضي دعوتي وتبتعدي عني عندما دعوتك للشاي هنا ؟»

توقفت بينما الشوكة في الهواء وفيها قطعة من عش الغراب . ثم ابتسمت قليلاً وقالت :

«في الحقيقة لم أفكر في ذلك. ولكن هل كنت ستغضب لو كنت طلبت منك ذلك؟»

ألقى رأسه للوراء وضحك بصوت عال .

كان المطر يتساقط على نوافذ الكوخ ولكن الجو في الداخل كان دافئاً ومريحاً . وأخذ روبرت يتحدث في مختلف المواضيع . عن المسرح والأشخاص الذين مثّل معهم. عن باريس في الربيع وعن أشجار أبو فروة عندما تتفتح أزهارها... وعن العائلة الأمريكية صاحبة الملايين التي أقام لديها فترة من الزمن ، والتي كان لديها فرقة موسيقية دائمة تعزف الموسيقى للضيوف أثناء استحمامهم في حمام السباحة الفاخر ، بينما يمر الخدم بصواني محملة بجميع أصناف المأكولات الشهية مثل السرطان المحشو بالكبدة وبيض النورس المسلوق والكافيار.

«أعجبني هذا الجو لمدة أسبوع، لكنني افضل بلاط الملكة اليزابيث الأولى إلى حد كبير ... كل تلك الأجسام المغطاة بالزيت ، وتلك الموسيقى المجنونة التي تصدح، بينما يهضم الأسنان السرطان المحشو بالكبدة جعلتني أشعر بالاختناق.»

رشف شرابه ومد يده ليأخذ الجبن . وبينما كانت ليجيا تراقبه أحست أن يديه جميلتان بشكل غير عادي بالنسبة الى رجل .

«هل تريدين بعض الجبن ؟»

فضلت ليجيا قطعة من فطيرة التفاح التي أخبرها أن السيدة التي تحضر من برنشام لتنظيف منزله أعدتها له.

«إنها سيدة طيبة ولا تكف عن القلق عليّ لأني أعيش هنا بمفردي.»

ضحك :

«أني لأعجب ماذا ستقول لو علمت أني لا أعيش هنا بمفردي ؟»

ضحكت ليجيا وهي تلعق السكر من سبابتها وقد اعتادت على تقشفه. وأدركت في هذه الساعة أنه يستطيع أن يكون ساحراً بالبساطة نفسها كما يستطيع أن يكون قاسياً. ولأنها كانت شديدة الحساسية تأثرت بسحره كما سبق أن تأثرت من قبل بقسوته.

مع مرور الوقت شعرت بالهدوء والاسترخاء بينما أخذت حدة مخاوفها تقل، وبدأت تشعر بسحر المكان الذي زاده جمالاً كل ما في الغرفة. فقد شرب بانكر

الشاي الخاص به بسرعة واستلقى بجسمه التعبي أمام النار المتوهجة .
وانتشرت الأضواء الخافتة المنعكسة من النحاس والأواني القصديرية . وخلفها
الحائط الأبيض والظلال المتراقصة على عوارض السقف الخشبية السوداء. وكان
هناك إلى جانب ذلك رغبة مشتركة بين ليجيا وروبرت في ألا تنتهي هذه
اللحظة أبداً. خوف مشترك من أن شيئاً قد يحدث فيحطم سعادتها المتدفقة في
هذه اللحظة الساحرة التي وجداها معاً على غير موعد.

ولكن العالم يدور والساعة تدق وكلاهما يشعر بالأسف يرقّ في صوت
روبرت وهو يقول :

«حسناً يا ليجيا - هل استمتعت بضيافتي وطعامي الذي أعددته بنفسي ؟»

ابتسمت له عبر المائدة وأشارت الى طبقها الفارغ:

«كنت جائعة أكثر مما تصورت.»

«جو مستقلعاتنا مشهور بفتح الشهية - تعالي الى ديفون العظيمة يمتلىء
جسمك كالزبد ! لهذا جئت أنا.»

«أوه ! أنت ؟»

نظرت بعينيها البنفسجيتين إلى جسمه النحيل.

«لن تكون أبداً في خير حال بخدودك الوردية كالتفاح وبكرشك البارز. كما أن
هذا سيكون صدمة لكل المعجبات بك.»

«آه المعجبات - الآف المعجبات المتهافتات !»

ضحك ولطّف في بطء برشاقة القط .

«إن لديّ صدمة لهن . سألعب دور الأب في مسرحيتي المقبلة هنا إذا استطعنا أن
نجد الفتاة المناسبة لتمثيل دور الساذجة. إنهن شياطين وهنّ إما سمينات
كالأطفال في الرابعة أو يكُن في الثلاثين وجافات كالأرغفة. ملعون أنا اذا كنت
أقوم بدور أب لأمرأة في الثلاثين تتظاهر بأنها في الخامسة عشرة!»

«إذاً ستكون طفلة سمينة بفم أحمر !»

ضحكت ليجيا وهي لا تتصوره كأب لطفلة سمينة بفم أحمر

«لن يكون هناك شيء على الاطلاق اذا لم نجد النوع المناسب . لدي عرض
للذهاب الى نيويورك إذا فشلت المسرحية البريطانية. وفي الأغلب سأوافق

عليه.»

«ألم تقل في فيلم سينمائي ؟»

«لا. فلتذهب السينما الى الشيطان. مثلت بعض الأعمال الصغيرة للتلفزيون،
ولكنها سريعة وتنتهي فوراً. أما العمل لمدة ستة أو ثمانية أسابيع في ستوديو
فهذا يؤدي بي الى الجنون.»

ابتسمت لنفاد صبره وأخذت تداعب بالنكر . عندما اقترب منها. لاحظت أن
علامة الخاتم اختفت تماماً من أصبعها الثالث. وللحظة عابرة شعرت أنها تعرف
السبب الذي دعاها لأن تلبس خاتماً في هذا الأصبع . ولكن عندما حاولت أن تمسك
بتلك الحقيقة وتثبتها بشكل ملموس فوجئت بها تتلاشى وتمحي تماماً. نظرت الى
روبرت وهي تشعر قليلا بالدوار. ولأن موضوع الخاتم كان مرتبطاً في ذهنها
بتشيز قالت :

«طعامك اللذيذ أشعرني بالامتلاء لدرجة أني لن أستطيع تناول لقمة في العشاء
عندما أعود الى تشيز.»

«آه تشيز !»

نظر روبرت إلى الساعة ونظرت إليها ليجيا أيضا ثم صاحت بانزعاج :

«سيكون العشاء بدأ عندما أصل الى هناك ! ماذا أفعل ! هل تظنّ أن أفري
يكون قد عاد من بليموث الآن ؟»

«لا أظنّ ذلك .»

كان روبرت مستلقياً على كرسيه يرشف شرابه . وعلت شفتيه ابتسامة
ساخرة وهو يقول :

«هل يساوره قلق عليك إذاً ؟»

«نعم ... قليلا !»

احمرّ وجهها لابتسامته الساخرة . وعلى الفور ذاب سحر الساعة الماضية
بسرعة . كما يذوب آخر شعاع لشمس غاربة الأفق. اقشعر جسمها حين أدركت
أن مشاعر العداء القديمة لا يمكن محوها في ساعة. إن مجرد ذكر اسم أفري أعاد
الشعور بها وبدأت تؤلمها مرة أخرى كمجروح ضاع تأثير المخدر منها.

«إنها طبيعته ... يجب أن تعلم ذلك.»

وأضافت متلعثمة :

«إنه يشعر أنه مسؤول عني .»

جلس روبرت ساكناً وسُمع في الغرفة صوت قطعة خشب في المدفأة تتكسر وينطلق منها الشرر. وتحرك بانكر ورفع رأسه عن يده. كان نائماً بجانب قدم ليجيا اليمنى ولكنه قام وطاف حول المائدة ووضع رأسه على ركبة روبرت.

ربت روبرت عليه بدون تفكير.

«إنك تميلين لأقري أليس كذلك يا ليجيا ؟»

«نعم .»

قالت وهي تعبث بعصبية بكوب الشراب :

«إن له قلباً طيباً لدرجة أنه يستحيل على المرء أن يقاوم حبه أو يقاوم تمنيات النجاح له فيا يفعله. أقصد أنه ضحى بأشياء كثيرة، كعيادته في لندن وكثير من أصدقائه وهواياته. وإذا حقق نجاحاً في بحثه فإن ذلك يعني الكثير بالنسبة اليه. إنه يشعر برغبة جامحة في وضع حدّ لآلام الناس .»

كانت ليجيا تبدو في هذه اللحظة وكأنها هي أيضا تشعر بأن وضع حد لآلام الناس هو أهمّ شيء في الحياة. لذلك لم يستطع حتى روبرت الساخر أن يسخر منها.

«إنك لا تحبين هذا الشراب . سأعدّ لك بعض القهوة.»

أخذ يبحث في دولاب داخلي بجانب المدفأة عن بعض الفناجين والأطباق وعندما أحضرها الى المائدة صاحت ليجيا بإعجاب وهي تمسك بأحد الفناجين :

«كم هو جميل .»

كانت أصابعها تتحسس النقش البارز الجميل الذي يحيط بالفنجان. قالت :

«هذه الفناجين أجمل من أن تستعمل في الشرب .»

«إنه طقم أصيل من حجر الكاميو ذي النقش البارز. كان ملك جدتي.»

أمسك هو أيضا بأحد الفناجين الذي بدا صغيراً ورقيقاً بين أصابعه الطويلة.

«لا أعرف لماذا أعطته لي إلاّ إذا كانت لديها الفكرة العاطفية بأني سأفكر فيها كل مرّة أستعمله.»

«لا لم يكن هذا هو السبب - إنها تعلم أن لديك حباً متأصلاً للأشياء الجميلة لقد

أخبرتني مرّة بذلك.»

«حقاً ؟»

رفع حاجبيه باندهاش وهو يسأل :

«هل تتكلمين أنت وجدتي كثيراً عني ؟ في كل حال لا أظن أنها أخبرتك بشيء لم تكوني قد حدثت نفسك به - إنك تعلمين أني عنيد جداً أليس كذلك يا ليجيا؟»

قابلت عينيه الساخرتين ورغم أنها لم تستطع أن تنكر عناده وجدت نفسها تلتمس له العذر لدرجة معينة . إنه يحمل لعنة قديمة مميّزة أصابت عائلة تشيز. وقد قالت السيدة تشيز إنه يحارب هذه اللعنة ويخفيها كلّما استطاع ذلك. لذلك كان على ليجيا أن تغفر له ذلك العيب الخفي كما كانت ستغفر له أي عيب ظاهر . شعرت في تلك اللحظة أنها تريد أن تلمسَ وجهه وتخفف عنه ذلك التعبير من القلق الساخر.

توتر الجو بينهما وشعرا بالغرفة تضيق. قفزت ليجيا بحدة عندما هبّ روبرت واقفاً وذهب الى الباب وهو يقول :

«سأصنع القهوة .»

زال التوتر من الغرفة بعد خروجه. ولم تسمع ليجيا صوت المطر والرياح أصبحت لا تشعر بأي شيء خارج جدران هذا الكوخ الحجري ونسيت تشين وقد أخذت تتجول في الغرفة وتلمس أشياء روبرت بأطراف أصابعها. تماثيل صغيرة من الجاد الأخضر الشفاف وفتاة من الصيني تحمل الورود في حجرها وقطعة من الحفر على النحاس معلقة على الحائط والأبواب الطويلة المحروثة كالداتيل للبوفيه الطويل الجميل. بعد قليل جلست متكورة على إحدى الوسادات الجلدية وأخذت تقرأ إحدى رواياته.

عندما دخل روبرت ابتسم إذ رأى ليجيا تجلس متكورة على الوسادات الجلدية المستديرة كجنيّة على نبات الفطر وعيناها البنفسجيتان تجمعان الأضواء من النار وخداها يعكسان ظلال رموشها الغامقة الطويلة.

«ما الذي تقرأينه ؟ هل هو نص لمسرحية «العاصفة هي ميراثي»

«نعم .»

لم تقل الا تلك الكلمة ولكن شيئاً ما في الطريقة التي قالتها بها جعلته ينظر إليها باستغراب . أخذ يسكب اللبن في الفناجين.

«هل يعجبك هذا العنوان ؟ إنه عنوان مثير ومشوق. ولكن الشيء المدهش أن جمهور المسرح الانكليزي يحب لمسة من هذا التوقع.»

لكنها لم تكن تسمع ما يقوله. كانت تمسك بنص المسرحية بشدة في يديها وكانت عيناها مثبتتين على الاسم المطبوع تحت عنوان المسرحية وفجأة قالت :

«فنتون لين .إني أعرف هذا الاسم. إنه كاتب «الخاتم والحذاء».

كان روبرت يسكب القهوة وعندما قالت ذلك رفع رأسه فانسكبت القهوة على المائدة.

تمتمت ليجيا :

«إنها رواية غريبة.»

سألها روبرت :

«كيف لك أن تعرفي ذلك ؟»

«لم تجد إعجاباً من النقاد أبداً ـ أليس كذلك ؟»

كانت تكلم نفسها غير شاعرة بعيني روبرت اللتان ضاقتا وهو يراقبها قابضاً على يد إبريق القهوة.

استمرت ليجيا :

«إنه الفصل الثالث بالطبع... عندما تخرج الزوجة الثانية في منتصف الفصل ولا تظهر ثانية. لم أستطع أبداً أن أشعر بتلك اللحظة لأني كنت أريد أن أقوم بعمل من أعمال التمرد على المسرح في ذلك الوقت بالذات. كنت أحس أنه يجب على أي امرأة ألا تفكر في شبح الزوجة السابقة إلا إذا كانت تكره زوجها . وطوال الشهر الذي كنا نمثل فيه مسرحية «الخاتم والحذاء» على مسرح توركاي لم أستطع أن أحب ذلك الدور أو أشعر بوجود نفسي فيه. أنا...»

ثم خفت صوتها ووضعت ظهر يدها اليمنى على فمها بحركة غريبة متشنجة. ثم سحبت يدها عن فمها وأضافت :

«تشاجرت بعنف مع المدير لكن المرء لا يستطيع أن يخذل الناس هكذا كنت قد وعدت لوي غراي أن أحل محلها حتى تتحسن والدتها وتستطيع أن تعود الى

الفرقة...»

«الفرقة ؟»

فاجأت كلمته ليجيا فرفعت رأسها عن النص لتجد عيني روبرت تملأن الغرفة. أصبحت الغرفة كلها عيني روبرت بل أصبح العالم كله عيني روبرت عندما أخذ يقترب منها ببطء ثم قال بصوت بارد جعل جسمها النحيل يجفل :

«استمري ياليجيا . دعينا نسمع الباقي . هذا كله مثير جداً. تشاجرت مع المدير ـ فماذا فعل ؟ هل طردك ؟»

«لا .»

انطلقت الكلمة منها وسقط النص من يديها المرتعشتين :

«لم يفعل شيئاً ... لا بد أنه فعل .»

أمسك روبرت بمعصمها وبحكم قوته جذبها وهي واقفة أمامه في شدة غضبه. كان غضبه وسمرته يلتفان الظلال حولها. ثم لف ذراعيه حولها وقال :

«هل هذا ما فعله . أيتها المخادعة الصغيرة ـ بعدما أغرقته في بحار عينيك الرائعتين ثم تركته يتخبط . هل هذا ما فعله ؟»

أظلم كل شيء، ولم يكن هناك شيء سوى روبرت وصوت جدته وهي تخبرها «إنه وثني يا بنيتي والوثنيون ليس لهم أي قانون . هذا هو سحرهم وفي الوقت نفسه خطرهم، هذه هي عظمتهم ولعنتهم، إنهم يحبون أن يعيشوا الحياة ولكنهم لا يعبأون بالموت. قليلا ما يحبون وعندما يكرهون فبكل قطرة من دمهم.»

«روبرت . لا تكرهني !»

صاحت ليجيا وقد استطاعت أن تهرب من ذراعيه وتركض بكل قوتها إلى الباب . فقفز وراءها بدون وعي وهو يريد أن يعاقبها على الساعة الأخيرة . على البراءة في عينيها والطريقة التي قالت بها «أظن أنك تستطيع أن تكون لطيفاً مثل آفري...» لطيف مثل آفري ! لطيف وساذج ومخدوع بها، ولكن لا يمكن أن تكون آفري نفسه.»

«اللعنة !»

صرخ وهو يتعثر ويسقط على الوسادة الجلدية حيث كانت تجلس ليجيا

«وأضاف بانكسر إلى الفوضى بأن قفز نابحاً بحماس كأنه يشترك في لعبة.
«إننا لا نلعب يا صديقي»

قام روبرت عن الأرض وضرب الوسادة الجلدية من طريقه بقدمه وعندما وصل إلى باب الكوخ الخارجي كانت ليجيا تجري بكل قوتها تحت المطر في الظلام. وكانت أوراق الشجر المكوّمة تنزلق تحت أقدامها. ولم تستطع تلك اللحظة التي كسبتها أن تنقذها في هذه الغابة من الأشجار المتشابكة التي كان يعرفها أفضل منها. تآمرت الأغصان الملتفة معه للايقاع بها فتعلقت بملابسها وشعرها فلم تستطع التقدم. وعلى الفور برزت ذراع روبرت من الظلام والتفت حولها ورفعتها بجسمها النحيل المبتل عن الأرض. حملها بسرعة وبخطوات واسعة قوية عائداً إلى الكوخ وضرب الباب بقدمه فأغلقه خلفها، وعندما دخلا إلى الدفء، أوقفها على قدميها ثم قال باقتضاب:

«هيا اعترفي، ماذا أنت ومن؟»

أخذ يهزها بيديه فيسقط المطر من شعرها ويجري كالدموع على خديها.

«إنك ممثلة صغيرة متجولة على ما أظن؟»

هزت رأسها بالايجاب وهي تشعر أن صحوتها من فقدان الذاكرة أشبه بكابوس وليست هي الراحة التي كانت تتمناها.

ممثلة متجولة - نعم - دائماً على سفر مع «إدوارد» والدها حتى مات بالالتهاب الرئوي في المستشفى في يارموث منذ ثمانية أشهر. نعم. تذكرت كل شيء، الآن وكانت الحقيقة جافة ومأساوية في عينيها وهي ترفعهما الى وجه روبرت الأسمر الذي يفيض بالكراهية!

قال بازدراء:

«أظن أنك ستقولين أنك استعدت ذاكرتك بمعجزة؟ حسناً. لا تقولي لي ذلك لأني لن أصدق أكاذيبك مرة أخرى. قلت ذلك المغفل الذي كنت تتكلمين معه منذ ساعة، ولن أكون كذلك معك أبداً.»

لم تستطع أن ترد عليه. ولم تستطع حتى أن تبكي لأن الساعة الساحرة الجميلة التي قضتها معه انتهت تماماً من حياتها وكأنها لم تحدث أبداً. الجمال لحظات، لحظات عابرة كالزغب في الهواء، «قال لها والدها مرة ...» إنك تحاولين أن

تمسكي بالجمال وتحتفظي به في يديك إلى الأبد ولكنه يبتعد وينتهي إلى لا شيء في اللحظة نفسها عندما ترينه وتشعرين به.

كان في ذلك الوقت يتكلم عن والدتها «الصغيرة الجميلة» كما كان يسميها ميف الأيرلندية التي آمنت به كممثل وكرجل وتحملت معه بكل شجاعة المتاعب وخيبة الأمل التي تخللت حياته الفنية.

فعندما كان إدوارد بلير شاباً بدا وكأن له مستقبلاً باهراً كممثل اذ كان ساحراً وله لحظات رائعة. ولكن الأبواب الحديدية لمدينة المسرح في لندن لا تتفتح لكل يد تحاول ذلك. ورغم أن إدوارد حاول وهو يشتعل بالأمل إلاّ أنه بدا أن هناك عائقاً كان يقف دائماً في طريقه. كان يقول له أحد المديرين «عد الى مسرح الدرجة الثانية - أو احصل لنفسك على وظيفة ساقي - إن الوجوه الوسيمة كثيرة»، ثم يرفضه مدير آخر بسخرية لأنه كان مضطراً لأن يعول زوجته وابنته مما جعله يبدو من ممثلي الدرجة الثانية. ثم تجمعت كل هذه المتاعب المستمرة، بل وكأنما كان القدر متربصاً فتكومت المصائب معاً في كارثة واحدة كبيرة عندما ماتت زوجته المعنوية. وكان يقابل بالرفض أو بالحقد الصريح لوسامته... وهبط طموح إدوارد الى الحضيض ورضخ مكرهاً لوضعه كممثل من الدرجة الثانية ولم يكتب لقدميه أن تقفا على مسارح لندن الكبرى. لقد ولد ممثلاً من الدرجة الثانية وسيموت بلا شك وهو مازال مقيداً بالسلاسل نفسها أما ليجيا فلا!

لقد قرر ذلك عندما بدأت تظهر مواهبها المسرحية. كانا سيعملان بجد كممثلين من الدرجة الثانية طبعاً ويوفران بعض المال لتتمكن من التخصص سنتين في الأكاديمية الملكية. أما هو فلم تكن لديه تلك الفرصة. إن هذه الدراسة تصقل الممثلين الناشئين وتهذبهم، كما أنها تؤثر على مديري المسارح الكبرى. إن إدوارد متأكد من ذلك.

نعم، كان يعتقد أنّ ليجيا ستؤثر على أحدهم ذات يوم وستصبح نجمة، وسيعوضه ذلك فقد زوجته وفشله المتكرر والفقر الطاحن اللانهائي. لكن إدوارد لم يتغلب تماماً على الصدمة التي فاجأه بها القدر حين فقد زوجته وعندما خرّ صريع الالتهاب الرئوي في يارموث لم يقاوم المرض وترك نفسه يموت. مات وهو يمسك بيد ليجيا وينظر بهدوء مبتسماً وكأن شخصاً يقف

هناك وينتظره.

أما ليجيا التي كانت في التاسعة عشرة لم تعرف إلا مسارح الدرجة الثانية وبقيت فيها. كان الطريق أمامها مقفراً وكلاً وروحها الشابة الحساسة تثور على الحياة التي قتلت والديها بل وتزداد ثورتها حدة بمرور الزمن. الغرف المستأجرة التي لا تعوض أبداً عن البيت الحقيقي ، والمسرحيات البالغ فيها. والأمل الذي لم يكن أملا حقيقياً في تحقيق حلم النجومية. حلم لا يتحقق إلا للقليلين...

عرفت ليجيا الآن وهي تقف في كرخ روبرت تشيز أنها حاولت نسيان عمرها المرتبط بالوحدة. لتقفز منه إلى وضع أفضل. حاولت أن تقفل الباب على عمرها هذا. وكانت لحظة تراكم كل هذا البؤس هي تلك الأمسية في توركاي عندما هربت من المسرح في ذلك الحذاء اللامع الذي كان يناسب المسرحية وشفتاها تؤلمانها ألما شديداً من أثر قبلات جورج داوتهام ...

داوتهام! . اقشعر بدنها وهي تتذكر ذلك الرجل الكبير الثقيل وهو يدخل إلى حجرة الملابس ذلك المساء بخطى ثقيلة كحيوان عثر على فريسته. لقد فعل ذلك مرتين من قبل لأن هناك فترة عشر دقائق بعد خروجها من المسرح تكون فيها بمفردها قبل أن يخرج بقية الممثلين. ولكن في المرات السابقة كان يتكلم معها محاولا إقناعها بالخروج للعشاء معه . أو كان يناقشها في الطريقة التي كانت تبدو فيها كالدمية في آخر مشهد لها في مسرحية «الخاتم والحذاء» . ولكن هذه المرة لم يطلب منها أن تخرج معه كما لم يجادلها بخصوص المسرحية. أخبرها وهو يضحك أنها لا بد أن تكون أكثر دفئاً وقبل أن تستطيع الهروب منه أمسك بها وجذبها إليه وأطبق عليها كالمصيدة.

اقشعرت ليجيا عندما تذكرت أهوال تلك اللحظة العائدة إلى ذاكرتها لتعذيبها وكيف أطلق صيحة حيوانية عندما لجأت لاحدى تلك الحيل التي علمها اياها والدها خصيصا لتتخلص من مثل تلك المواقف. سقط داوتهام على الأرض وانطوى على نفسه من الألم. أما هي فقد انطلقت هاربة من المسرح.

لم تكن قد خلعت الحذاء الخاص بالمسرحية عندما حضر داوتهام إلى غرفة الملابس ، وكانت تلبسه عندما هربت . وركبت وهي في حالة من الفزع الشديد

أحد الأوتوبيسات من خارج المسرح.

نظرت مباشرة في عيني روبرت وقالت :

«اسمي بلير وقد هربت من فرقة من الدرجة الثانية لكني لم أكن أعلم أني أهرب . كانت آخر ليلة للمسرحية وكنا سننتقل في اليوم التالي إلى بورنماوث . وأظن أني كنت في عقلي الباطن أمارس الهرب من مدة طويلة وعلى الأرجح بعد وفاة والدي منذ ثمانية أشهر . ولكن في تلك الليلة في (توركاي) بدأت أهرب حقيقة. وأنا أعلم الآن أني هربت من المسرح وركبت أتوبيساً وأعطيت السائق كل النقود التي كانت في جيبي وقد نقلني الى برنثام، ولا بد أني ألقيت تذكرة الأوتوبيس بعد نزولي وبعد ذلك مشيت ومشيت».

دفعت يدها المرتعشة في شعرها المبتل وترنحت فجأة وشحب وجهها فيما عدا عينيها البنفسجيتين . كان جسمها عديم المقاومة عندما تلقفها روبرت ورفعها بلا رقة ووضعها على أحد الكراسي. ونظر إلى وجهها وكانت شفتاه بلا لون كشفتيها ورفيعتين وكالسيف حادتين. وقال :

«كان المفروض أن أطردك الآن وأتخلص منك نهائياً. ولكن لأني كسائر البشر لست ملاكا فإنني لا أستطيع أن أدينك».

همست :

«أنت لا تصدقني ؟»

ضحك بكل سخريته :

«هل تريدينني أن أصدق أي شخص يستطيع أن يختفي من عمله هكذا بدون أن يسأل عنه أحد ؟ ماذا عن مديرك ؟ إنه أول شخص يفترض ان يسأل إنها فرقة مسرحية ولا يمكن أن تلتقط أي ممثلات وتدربهن وخاصة أن المسرحية تحتاج أسابيع عدة من التدريب».

«إنك مخطىء !»

قالت وهي مجهدة :

«جورج داوتهام لن يسأل عني . لقد تشاجرنا.»

دفعت يدها في شعرها المبتل المبعثر وكانت عيناها غامقتين ومضطربتين.

«أعتقد أنه أخبر باقي الفرقة أني تركت العمل ، وسيقابل بالتصديق لأن كثيرات

متهن يعلمن أني غير سعيدة بالعمل معه.»
«وماذا عن غرفتك حيث تسكنين ؟ لا بد أن صاحبة الغرفة وجدت الأمر غريباً عندما لم تعودي لتأخذي حاجياتك وتدفعي الايجار»
«أوه ... حسناً..»
تلعثمت بشدة لأن ما ستقوله لن يصدقه أحد وخاصة هو.
«لم أكن أذهب الى المنزل الذي تسكن فيه بقية الفرقة. لم أكن أريد أن أكون بجانب جورج داونهام لذلك استأجرت حجرة فوق مقهى بجانب ملاهي الرونالد . كان المكان... أو على الأقل كان الناس طيبين معي.»
ارتفع صوتها وهي تدافع عن نفسها كما يرتفع صوت الشاهد عندما يشعر أن المحلفين لا يتعاطفون معه. كادت تبتلع كلماتها الأخيرة ونطقتها بسرعة كبيرة.
«أظن أن صاحب المنزل كان يتاجر في البضائع المسروقة. أنا متأكدة من ذلك لأن عربات النقل كانت تقف هناك في ساعة متأخرة من الليل. أظن أنه كان يتاجر في السكائر والسكر وعلب اللحم. وفي هذه الحالة فإنه لن يحب أن يحشر البوليس أنفه في المكان. لذلك من غير المتوقع أن يبلغ بغيابي.»
سألها روبرت :
«هل تتوقعين أن أصدق أنك كنت تقيمين في مثل هذا المكان بفردك ؟»
ابتسمت بشيء من الخجل ثم قالت :
«كنت بمفردي منذ وفاة والدي. وكنت أفضل صاحب المقهى الرثيب هذا على مديرنا. وعلى كل حال عندما تعمل ممثلاً متجولاً أغلب حياتك وتسافر من بلد الى آخر طوال الوقت ، فان سريراً نظيفاً وسقفاً غير مبتل أهم كثيراً من أمانة صاحب المنزل. علمني والدي ذلك برغم أنه لم يستطع أن يفعل الشيء نفسه دائماً. كان يعاني من التهاب في الغشاء البللوري . وفي العام الماضي جاءته أزمة حادة جداً وتوفي . كنا في يارموث في ذلك الوقت.»
كانت هناك لحظة طويلة من السكوت وارتفع صوت ساعة روبرت كأنها قلب يدق. وانهارت قطعتان من الخشب في المدفأة كطفلين متعبين سقطا نائمين في أحضان بعضهما البعض . قال روبرت أخيراً وهو يراقبها :
«إنك تجعلين القصة تبدو ممكنة التصديق.»

قالت بسخرية :
«ممكنة التصديق ! الحقيقة يجب أن تكون ممكنة التصديق.»
اضطرت لوضع روبرت يده على فانلتها فوجدها مبتلة من المطر.
«يستحسن أن أعطيك ملابس أخرى قبل أن تضطريني لتمريضك من نوبة التهاب رئوي.»
نظر إليها فظنت أنه لابد يعتقد أنها ورثت ضعف الرئتين عن والدها. سألها روبرت :
«هل أستطيع أن أتركك هنا بمفردك بينما أحضر لك بعض الملابس؟»
لم تجب وقد لفها البؤس وصوت المطر وهي تعلم جيداً أنه بمجرد أن يتركها بمفردها ستخرج في المطر. المطر ليس أبرد من صوته ولا الليل أعتم وأصعب قسوة من عينيه.
«إذن تفضلين الالتهاب الرئوي عليّ ؟»
ضحك بلا مرح ثم جذبها عن الكرسي وحملها من غرفة الجلوس وصعد بها السلم الحلزوني الضيق وهو يحني رأسه ليتفادى السقف المنخفض . وضعها على الأرض ثم سمعت احتكاك عود كبريت وأضاء مصباحاً فأخذ الضوء يتراقص في الغرفة ويلقي ظلاله على الجدران البيضاء والسرير الكبير.
«اخلعي هذه الملابس المبتلة»
قالها روبرت وهو يلقي إليها بروب من وبر الجمل. ولكن يديها المتخشبتين لم تستطيعا التقاط الروب فسقط على الأرض. انحنت لتلتقطه وفجأة أعمتها الدموع وأخذت تبكي في عجز وقد أسندت رأسها الى سرير روبرت .
« يا إلهي لماذا تبكين ! إنك مبتلة تماماً»
ذهب إليها وجذبها واقفة.
«إنك جامد ...قاس»
كانت دموعها تلمع في الضوء بينما أخذ يساعدها كطفل مهزوم .
«لا تنسي أن تضيفي أن لي وجهاً عديم الرحمة كوجه مفتش أسباني»
قال ذلك وهو يلقي فانلتها على السرير. تنبهت إلى أنه يخلع عنها ملابسها بكل هدوء . حاولت أن تبتعد عنه ولكن تنورتها سقطت على الأرض ووقفت

أمامه نحيلة وبلا حماية.

شعرت بيديه على ذراعيها وفكرت في جورج داوتهام وسرت القشعريرة في جسمها لم تستطع منعها.

شعر بها ترفع وجهها إليه ومرت بوجهه الابتسامة الساخرة التي تجعله يبدو مثل آدم تشيز.

«كفيّ عن الارتعاش فأنا لست مدير فرقتك السابق! إني لا أستمتع بشفاه ترتعد من الخوف. هل تظنين أني مصنوع من حجر؟»

ثم نظر إليها في ضيق نظرة هزلية. والتقط الروب ووضعه بين يديها وقال:

«ارتدي هذا وانزلي وأنا سأجلب لك تنورتك وبلوزتك لأنك لا تستطعين العودة الى بيت تشيز بهذه الملابس المبللة.»

أخذ ملابسها وانصرف وسمعته ينزل على السلم ثم نبح بانكر وهو يدخل حجرة الجلوس.

أخذ الهواء يحرك الستائر وبدأ لهب المصباح يتراقص مرة أخرى. وشعرت ليجيا بالبرودة تسري في كتفيها وذراعيها فارتدت الروب الذي كان لا يناسبها لكبر حجمه وجمعت ثناياه في كومة أمامها ووقفت تنظر في المرآة.

«أعود الى بيت تشيز؟»

فكرت:

«ولكن تشيز ليس بيتي - ليس لي بيت.»

٧ - لحظة الضوء والنار

بعد ساعة، عندما توقف المطر أخذ روبرت ليجيا الى تشيز عن طريق برتشام، سارا بسرعة لأن الهواء كان يهب من البحر.

شعرت ليجيا بالامتنان لروبرت من أجل الكاكاو الساخن والمعطف المبطن بالفرو الذي أعارها اياه قبل أن يتركا الكوخ، ورفعت ياقتها على أذنيها.

قال روبرت فجأة:

«ماذا ستفعلين الآن؟»

«الشيء الوحيد الممكن هو أن أعود الى مسرح الدرجة الثانية.»

«آه! هل هو فعلا الشيء الوحيد الممكن! من الجائز أن أفري لديه خططاً أخرى بالنسبة اليك. هل فكرت في ذلك؟»

لم تستطع أن ترى وجهه في الظلام ولكنها تساءلت إذا كان يبتسم ابتسامته الساخرة.

«لا لم أفكر في ذلك.»

نظرت إليه باستياء:

«أنا لست إحدى الباحثات عن المال برغم أنك تبدو مصمماً على ذلك يا سيد تشيز»

«سيد تشيز؟»

ردد بسخرية:

«عرتني روبرت عندما ركضت الى الخارج في المطر.»

«أنا آسفة.»

رقت بسخرية شبيهة بسخريته ولكنها شعرت بحرارة ليس مصدرها سترة الربن. ضايقها وأخجلها أن يكون قد احتضنها حتى في لحظة غضب وشعرت كأنها تجردت من ملابسها أمامه.

«لماذا أنت آسفة ؟ هل لأنك هربت مني ؟»

جعلتها طريقة كلامه الضاحكة ترد بقرف :

«لا ! إنك تعرف جيداً ما أعني.»

«هل تصدقين أنك لاتستطيعين النطق باسمي إلاّ في الظروف القاسية جداً ؟»

«نعم.»

«إذاً يجب عليّ أن اعانقك مرة أخرى لتنطقي باسمي ؟»

لم ترد عليه فضحك وقال :

«لا تخافي . لن اعانقك مرة أخرى.»

توقف عن السير لأن منزل تشيز ظهر أمامها بأضوائه المتلألئة خلال الأشجار وقال :

«سأتركك هنا.»

«أشكرك لتوصيلي.»

«العفو يا ليجيا.»

تركها عائداً وهو ينادي بانكر - رفع يده محيياً ثم غاب في الظلام . بدأت تسير صوب تشيز وهي تلف المعطف حولها لأن المطر بدأ يتساقط . وفكرت أن تترك المعطف في منزل تشيز ليأخذه روبرت فيما بعد. كان المطر قد بدأ يتساقط بغزارة ويحدث صوتاً عالياً على الشرفة، وانفتحت السماء المعتمة بسيوف البرق الفاجىء وصرخ الرعد كحيوان مفترس يبحث عن فريسة.

فتح لها رئيس الخدم فدخلت ونظرت حولها. كان البهو يبدو ضخماً مخيفاً هذه الليلة والأرضية دكناء والعيون التي تطل من صور أفراد العائلة أكثر حذراً وأبواب الغرف المختلفة مغلقة بالنسبة اليها.

قال ديفيد :

«إنها عاصفة شديدة آتية من الغرب - لحسن الحظ أننا في منطقة مرتفعة. أما كل ما تحت مستوى أراضي المستنقعات ، فهو مهدد بالغرق عندما يبدأ البحر في الغليان ويرتفع ويتخطى ذلك السور في برنشام . لقد حدث هذا من قبل.»

همست ليجيا بخوف :

«طوفان ؟»

«نعم يا آنسة. كانت المراكب تنقل الطعام والمؤن الى الناس وكانت الوديان كلها أشبه بالأنهار تطفو عليها قمم الأشجار والحيوانات الميتة. أما الشوارع فلم يكن ممكناً أن تسير عليها أي عجلة.»

ارتعشت ليجيا ونظرت إلى الباب الخارجي كأنها ترى وراءه شارعاً معتماً يمتد الى البحر المائج.

قال ديفيد بخبث :

«استطاع الدكتور أن يعود من بلايوث في الوقت المناسب . وصل منذ عشرين دقيقة وهو موجود في غرفة الاستقبال مع السيدة تشيز.»

انصرف ديفيد إلى المطبخ، وسكن كل صوت في البهو عدا نبضات الساعة وصوت المطر كالسياط في الخارج. شعرت ليجيا أنها تود أن تهرب الى حجرتها قبل أن يراها أفري . فهناك الكثير يجب أن يقال وهي لا تستطيع أن تقوله كله هذه الليلة . ليس الليلة !

صعدت السلالم وأثناء صعودها انفتح باب الردهة وسمعت صوت أقدام. توقفت باندهاش ، ثم صوت يقول :

«حسناً آن الأوان لتعودي !»

توقفت ليجيا على السلالم واستدارت وقابلت عيني جردا الزرقاوين. تفحصتها جردا ولاحظت تنورتها المتكرمشة ومعطفها الرطب المتدلي على جسمها الصبياني وكان يغطي وجهها تقريباً ثم قالت :

«إنك تبدين في أسوأ حال . أين كنت بحق الشيطان ؟ فاتك العشاء !»

«فاجأني المطر.»

أجابت ليجيا وهي تضغط قبضتها في جيوب المعطف ثم استدارت وهي تقول :

«يجب أن أذهب لأغيّر ملابسي ، لا يهمّ العشاء.»

«عاد أفري من المؤتمر . هل تعلمين ؟»

«نعم . أخبرني ديفيد .»

«ساور أفري القلق عليك .»

ضحكت جردا ثم توقفت عن الضحك فجأة وهي تعيد النظر إلى ليجيا ثم قالت بصوت عدائي :

«هذا معطف رجل . أظنّ أنه معطف روبرت ! إنه معطف روبرت ، أليس كذلك ؟»

لم يكن لدى ليجيا القوة للخوض في معارك أخرى هذه الليلة ـ فهزت رأسها بدون كلام.

أنشبت جردا أظافرها الحمراء في تنورتها وهي تقول :

«أيتها القطة الصغيرة الزاحفة، ذهبت إلى الكوخ وبقيت ساعات هناك، أليس كذلك؟»

زمجر الرعد وهدر مصاحباً تلك الاتهامات المتتالية. انكمشت ليجيا على سور السلم وهي تشعر بالتعب .

«شربنا الشاي معاً فقط ولم أبق ساعات . لاداعي لأن تنظري إليّ هكذا يا جردا ؟»

«إني أود أن أقتلك ! كيف تجرؤين على التسلل إلى هناك ، كيف تجرؤين ؟»

رنت كلماتها عالية وكريهة في الردهة واخترقت أبواب غرفة الاستقبال ، فانفتحت فجأة وبعنف وخرج أفري ووقف هناك، طويلا وصارماً.

«ما الخبر يا جردا ؟»

نظر إلى جردا محدقاً ثم انتقلت نظرته الى أعلى وتسمرت على ليجيا كانت تبدو وإطار السلم الخشبي الداكن خلفها والأضواء والظلال تسقط عليها كشيء أثيري بلا جسم ، كروح استحضرها الليل والريح. سألها أفري :

«أين كنت يا ليجيا ؟»

ردت جردا قائلة لأفري وعيناها تلتهبان بالغضب وهي تريد أن تمسك بليجيا :

«نعم اسألها هذا السؤال .»

«ماذا تقولين ياجردا ؟»

«تلك القطة الصغيرة ذات الوجه الشحب كانت مع روبرت ، ذهبت إلى كوخه وبقيت معه طوال بعد الظهر اسألها اسألها ؟»

امتلأ وجه أفري بتعبير من الاشمئزاز ، اشمئزاز مما قالته جردا ومن الطريقة التي قالته بها. قال معترضاً :

«لا أظنّ أنّ هذا ممكن ياجردا .»

«إني أقول ذلك ...»

ولكنه تحول عنها وقال لليجيا :

«ألا تنزلين ؟»

لم يكن صوته غاضباً بل تعبيره . فالطريقة التي وقف بها أسفل السلم جعلته يبدو في صورة الآمر الناهي الذي لا يمكن عصيانه ممّا زاد من عصبية ليجيا . وعندما تقدمت للنزول إطاعة لأمره، انزلق حذاؤها على السلالم المدهونة بالشمع فارتطمت بسور السلم. صرخت متألمة لأن جانب عينها اليسرى ارتطم بالسلم وفي لحظة قفز أفري درجات السلم وساعدها على القيام.

«أنا آسف ياليجيا...»

«ما من داع للأسف .»

جذبت نفسها من بين يديه وهي خجلة.

«ولكن يا عزيزتي ، في وجهك كدمة.»

أخذ يتفحص الكدمة الصغيرة في وجهها بلمسة خفيفة ولكن بشعور واضح من التملك والألفة ممّا أحرجها أمام جردا .

أفلتت من أفري ونزلت تجري على السلم بدون أن تدري إلى أين، ولكن عندما قابلتها ومضات البرق توقفت فجأة.

كانت السيدة تشيز تقف في مواجهتها في مدخل غرفة الاستقبال وعيناها السوداوان تتساءلان . فهمت ليجيا على الفور أن السيدة العجوز سمعت ما قالته جردا عن روبرت والكوخ وسألتها السيدة تشيز :

«هل ستخرجين في العاصفة ؟»

وقفت ليجيا أمامها فشعرت السيدة تشيز كأن ليجيا حيوان مطارد مجروح هرب حتى خارت قواه ويحتاج الى مكان يستريح فيه.

«تعالي إلى جانب النار - إنك تبدين متجمدة».

«نعم إني أشعر بالبرودة».

ذهبت ليجيا إلى النار ووقفت بجانبها. توترت أعصابها وهي تشعر بجردا وآفري يدخلان الغرفة - قالت جردا:

«ضبطها وهي تتسلل الى المنزل كلصة لعينة - من المؤكد أنها ذهبت الى الكوخ وقد اختارت الوقت الذي لم تكن أنت في المنزل».

سأل آفري وهو يراقبها:

«حسنا يا ليجيا - هل ذهبت إلى الكوخ؟»

قالت وهي متعبة:

«نعم».

«وماذا حدث؟»

حبس السؤال أنفاسها وبدا الغضب على وجه آفري لأول مرة فجعله يشبه روبرت رغم لونه الفاتح.

«شربنا الشاي معاً - وكان طيباً لدرجة كبيرة».

«بوب طيب؟ لا أصدق ذلك! إنك لم تستطيعي أبداً التفاهم معه. وحول اي شيء تحدثتما؟»

«تكلمنا أغلب الوقت عن المسرح».

«يا إلهي! ما الذي تعلمينه عن المسرح؟»

كانت تلك هي الاشارة. دقّ قلبها بعنف في حلقها كما كان يحدث لها دائما في اللحظة الصغيرة السابقة لظهورها على المسرح.

«إني أعرف الكثير يا آفري - على الأقل عن مسرح الدرجة الثانية. عادت إليّ ذاكرتي! وأنا أعلم الآن أني كنت أعمل في مسارح الدرجة الثانية معظم حياتي».

بدا كأنما الأصوات الصغيرة في الغرفة تنفجر بعد هذه القنبلة التي أطلقتها ليجيا. أصدرت جردا صوتاً يدل على الاندهاش وفرقع الحطب في المدفأة

وسمع صرير الأريكة عندما مالت السيدة تشيز وهي تنظر بحدة الى ليجيا ... وصاح آفري:

«أنت ... ممثلة؟»

«نعم!»

قالتها وهي تعلم أن هذا التصريح لن يعجب آفري بسبب روبرت.

«آه ... إني أرى».

نظر إليها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها.

«إذاً من الأفضل أن تخبرينا بكل شيء، أليس كذلك؟»

كانت يداها قد بدأتا ترتعشان فدفعتهما في جيوب معطف روبرت. ووقفت في وضع دفاعي على السجادة الأوبيسون وشعرها قد تهدل في غير نظام واسودت الكدمة بجانب عينها. جاءت كلماتها متعثرة وهي تخبر هؤلاء الثلاثة بقصتها.

وكان من المحتم في نهاية قصتها أن يسألها آفري بذلك الصوت البارد الغريب:

«إذاً تلك العلامة حول أصبعك جاءت من خاتم زواج في مسرحية؟»

«نعم يا آفري».

نظرت إلى حذائها وتذكرت ثاني ليلة قضتها في منزل تشيز عندما أمسك آفري يدها بقوة وكان مهتماً جداً بتلك العلامة حول أصبعها.

استمر آفري قائلا:

«يمكن أن تقول أن ذلك الشخص المدعو داونهام فهم - أو أراد أن يفهم أنك تركت الفرقة بسبب ذلك الحادث في غرفة الملابس. ولذلك لم يبلغ البوليس باختفائك؟»

«نعم، كان من هذا النوع».

عضت شفتيها وأضافت:

«لم يكن يريد أن يعرف باقي أفراد الفرقة ولم يرقني اهتمامه بي. أتصور أنه عندما لم أذهب في اليوم التالي الى محطة السكة الحديد أخبر أعضاء الفرقة أني تركتها».

أخذ آفري يفكر فيما قالته ثم قال بعد لحظة:

«كان من المحتم أن تستعيدي ذاكرتك . لكنه من السخرية بمكان أن يحدث هذا في كوخ بوب . أقصد بعد الموقف الذي اتخذه منك ، ازاء فقدان ذاكرتك.»

رافقها أفري بنظرة عملية باردة كشفت عن شخصية جديدة لأفري بالنسبة اليها، إلاّ أنه أفري القديم نفسه ، الطبيب المعروف في شارع هارلي بمهارته وجديته.

ثم قال أفري بالصوت الحيادي نفسه :

«العواطف المضطربة قد تفجر حالات الدماغ الهستيرية وتصل الحالة الى ذروتها عندما يتكرر الفعل الذي سبب هذا الاضطراب أخبريني يا ليجيا هل حاول بوب مغازلتك ؟»

قالت السيد تشيز وهي تتحرك بقلق على الأريكة :

«ما هذا يا أفري ؟ لا أظن أن هناك أيّ داع للقيام بتحقيق ـ الشيء الأساسي هو أن الفتاة عادت لنفسها مرة أخرى ولا يهم ما الذي فجرّ ذلك ! ثم نظرت الى ليجيا وقالت :

«ماذا تنوين ان تفعلي يا بنيتي ؟ هل ستعودين الى توركاي وتستأنفين عملك ؟»

«نعم يا سيدة تشيز سأعود .»

شعرت بالامتنان لما أظهرته السيدة تشيز من عطف عوضها قليلاً عن عدم عطف أفري غير المتوقع وقد ساعدها ذلك أن تقول له :

«سأرحل في الصباح اذا لم يكن عندك مانع أن تستضيفني ليلة أخرى.»

«لا مانع أبداً من استضافتك ، إنك تعلمين ذلك ، وكل ما حدث هذه الليلة... لا يغير من الأمر شيئاً، إنك لست مضطرة للرحيل.»

«كل ما حدث هذه الليلة ؟»

كانت تلك هي الكلمات الوحيدة التي سمعتها ورددتها بطريقة متبلدة بينما كانت العاصفة تزأر في الخارج .

«أظن أنك تقصد زيارتي لكوخ روبرت وما تظن أنه حدث هناك ؟»

أفلتت منها تنهيدة سريعة ساخطة ودفعت شعرها بعيدا عن عينيها بحركة ناضجة متعبة وفي الوقت نفسه طفولية حزينة.

«هل ستصدقني إذا قلت إني وروبرت لم يغو أيّ منا الآخر ؟»

وليجيا ؟»

«لا تنظر إليّ هكذا ! أنا لست طفلة أنطق بكلمة تخرج عن حدود اللياقة ـ أنا أترجم فقط في كلمات ما يدور في ذهنك ـ هذا كل ما في الأمر.»

جرت الى باب غرفة الاستقبال وعندما تحرك كأنه يتبعها أمسكت جدته بذراعه .

«أترك الفتاة تذهب إذا كنت تحبها.»

تحسس أفري شعره الأشقر بقلق ، وفقدت عيناه النظرة الباردة ، لتكتسبا مسحة ارتباك وخيبة أمل وهو ينظر إلى الباب الذي ذهبت منه ليجيا .

«الحب ـ ما هو الحب ؟»

أجابته جدته ببساطة :

«إنه الايمان بالشخص عندما يصعب الايمان به .»

«ولكن يا جدتي اسمعيني ؛ فقدت ذاكرتها لأنّ رجلا حاول أن يطارحها الغرام. ثم استعادت ذاكرتها في كوخ بوب . لماذا بحق السماء ذهبت إلى هناك رغم أن موقف روبرت منها طوال الوقت كان موقف عداء وشك ، كالكلب الذي ينتظر فرصته ليعضها؟»

قالت جدته بعد تفكير :

«هناك شيء اسمه الفضول ، بلغت الآن من العمر أرذله . هذا صحيح ، ولكني لم أنس تماما كيف تكون الفتيات ـ إنهن كالقطط يا أفري ـ مغرمات أن يحشرن أنوفهن في شؤون الآخرين وخاصة إذا كانت شؤون الآخرين غامضة ، وفيها كثير من الأسرار والأرجح أن ليجيا الصغيرة حشرت أنفها فقرصت ... إن روبرت لن يفعل أكثر من أن يقرص قطة.»

نظرت السيدة تشيز نظرة جانبية إلى جردا وبومضة شقاوة في عينيها قالت :

«أظن أننا نستطيع أن نقول إن روبرت لا يمكن أن يغري الفتيات الصغيرات.»

حدقت جردا في السيدة العجوز فتأجج بين هاتين السيدتين ذلك العداء الذي ينشأ بين سيدتين تحبان الرجل نفسه لأسباب مختلفة.

سألت جردا بغضب :

«هل تلمحين بأني تركت روبرت يغريني ؟»

نظرت السيدة تشيز إلى جردا بنظرة روبرت نفسها.

«يا فتاتي الصغيرة أنت التي تعرفين بالتلميح إلى ذلك رغم أني لا أفهم لماذا ، لأنه في أيامنا كنا نحتفظ بهذه الأمور لأنفسنا ولا نصرّح بها لأحد»

قالت جردا بغضب :

«لا أعرف متى لمحت بمثل هذا. يا إلهي - فقط لأني أذهب إلى كوخه»

لمعت عينا السيدة تشيز بانتصار كمن أحرز هدفاً :

«نعم فقط لذلك يا فتاتي . لقد كنت سريعة في اتهام ليجيا بأنها امتهنت نفسها . فقط لأنها ذهبت الى كوخ روبرت . لماذا ؟ هل ظننت أنها أعجبته أكثر من تلك الناحية ؟»

«أوه لن أقف هنا لأسمع تلك الاهانات ! هل تظنين يا سيدة تشيز أنك تستطيعين إهانة الناس كما تشائين .»

«أنا لست الوحيدة ياجردا ! فأنا أعتبرها إهانة أن أحد أحفادي ينحدر لمستوى التغرير بطفلة صغيرة. كنت أظن أنك تعرفينه قليلاً - طالما تدعين أنك تحبينه . إنه يستطيع أن يكون شريراً ولكنه ليس نذلاً - إنه ليس كذلك بأي حال ؟»

فجأة بدا التعب على السيدة تشيز فجمعت طيات تنورتها السوداء وقالت :

«تناول عشاءك يا أفري - كان مشوارك طويلاً .»

ثم انصرفت من الغرفة ببطء ووقار .

هدأت العاصفة قليلاً وخفت ومضات البرق التي كانت تضيء غرفة نوم ليجيا - كما خفّ المطر الذي كان يصفع على النوافذ.

كانت ليجيا ترقد في سريرها، وهي تصغي الى صوت المطر لكنها لم تستطع الاسترخاء، استنفدت طاقتها أحداث الساعات الأخيرة ذهنياً وجسمانياً. وكان ذلك من نوع التعب الذي يؤدي الى القلق بدلاً من النوم - كانت تتمنى أن ترى ضوء النهار يطلع فيبدد هذا الليل الكريه إلى الأبد.

إنها الآن تعرف اسمها ومن أين أتت . ولكن تلك المعرفة لم تعطها الراحة التي كانت تنشدها إذ ليس لها إنسان تلجأ اليه.

نعم إنها ستعود الى مسرح الدرجة الثانية... ليس هناك بديل آخر.

أول شيء ستفعله في الصباح هو أن تعود الى توركاي الى المقهى الذي كانت تقيم فوقه حيث تأمل أن تجد حقيبتها وممتلكاتها القليلة. كانت تحتفظ بدفتر توفير يحتوي على مبلغ صغير من المال في هذه الحقيبة ورغم ضآلة هذا المبلغ إلا أنه يمثل شيئاً من الاستقلال بالنسبة اليها إذ يكفي نفقاتها حتى تجد عملاً . لذلك فهي تتعلق بأمل راسخ أن تجده في انتظارها . حدقت في الحدود الباهتة لنوافذ الغرفة. توقف الرعد وكان الهواء الذي يمر من الستائر رطباً . لو كان موسم الاجازات في بدايته بدلاً من نهايته ربما استطاعت أن تجد لنفسها عملاً في مطاعم توركاي ولكنها تشك في وجود عمل في أحد هذه المطاعم في هذا الوقت من السنة بالنسبة الى فتاة مثلها تجيد الالقاء ولكنها لا تجيد توصيل الطلبات.

انفتح باب غرفتها فتسمرت في سريرها.

«إنه أنا يا ابنتي ؟»

كانت السيدة تشيز تحمل مصباحاً مضيئاً وظل جسمها النحيل المتشح بروب طويل يتراقص على الحائط ، وكان تنفسها ثقيلاً ومتهدجاً . تقدمت ببطء إلى سرير ليجيا وجلست بتثاقل في الكرسي بجانب السرير.

«كنت أعلم أنك لست نائمة ، ضايقك أفري أليس كذلك ؟»

جلست ليجيا في السرير وأظهر ضوء المصباح المتراقص شحوب وجهها والظلال الطويلة لرموشها على خديها.

«أفري واسع الأفق عادة - هذا تضايقت ، إنه بالتأكيد يصدق ما قالته جردا من تلميحات عني... وعن روبرت ؟»

سألت السيدة تشيز بخشونة:

«هل هي تلميحات فقط ؟»

شاع الدم في وجه ليجيا وأطبقت ذراعيها على ركبتيها وهي تتذكر تلك اللحظات السوداء التي أصابتها بالدوار بين ذراعي روبرت والشعور المخيف بأن الأرض تنشق تحت قدميها.

كانت جدته تراقبها عن كثب :

«حسناً ؟»

«عانقني ».

همست ليجيا هذه الكلمات .

«كيف حدث ذلك ؟ هل تخبرينني من البداية ؟»

هزت ليجيا رأسها ، وفجأة أخذت الكلمات تتسابق من فمها ، لم تكن تعرف أن الافضاء بما يشغلها بهذه البساطة وفي الوقت نفسه يمنح هذه الراحة النفسية.. قصّت كل شيء، كيف نامت تحت شجرة العليق وكيف استيقظت فوجدت روبرت يقف أمامها ثم الشاي في الكوخ وعودة الذاكرة إليها. وكيف شعر روبرت بالغضب الشديد لتأكده أنها كانت تخدعهم برغم كل شيء وكيف أمسك بها بوحشية وعانقها.

قالت السيدة تشيز وهي تدير الخاتم في إصبعها فيشع بلون أحمر دموي كالعاطفة البشرية عندما يسقط عليه الضوء ثم ينطفئ، ويعتم كالخطيئة عندما يبتعد عن الضوء.

«هذا الولد شيطان عندما يريد ـ هذا شيء لا يمكن إنكاره . إنه يقلقني يا ليجيا . لا أعرف ماذا سيفعل بحياته وأنا أتقدم في السن وأزداد تعباً كل يوم وأقترب من ذلك الباب الأخير الذي سنعبره جميعاً . إننا نمر من أبواب كثيرة في حياتنا يا بنيتي فنجد الشمس وراء بعض هذه الأبواب والظلام وراء البعض الآخر . ولكني أظنّ أنك بدأت تتعلمين ذلك ».

نظرت ليجيا في عيني السيدة العجوز السوداوين اللتين اكتشفت أمامها كل أسرار الحياة وشعرت بشبابها وحاجتها إلى مزيد من الخبرة وانتابها خوف من المستقبل وما قد ينتظرها من متاعب فاهتز صوتها وهي تقول :

«الحياة أيضاً كجبل ، نصعد ثم ننزلق ونجد بقعاً جميلة أو نخلق في أماكن أخرى» إن كل ذلك مخيف ».

هزت السيدة تشيز رأسها وهي تتذكر شبابها وأخطاءها واكتشافها مع مرور السنين أن الركائز التي يوفرها المال والجاه والمركز هي ركائز هشة برغم كل شيء.

«هل تعتزمين حقاً أن تتركينا غداً ؟»

«نعم ، لا أستطيع الاستمرار بلا عمل وبلا هدف . يجب أن أفعل شيئاً».

«وماذا عن النقود ؟ ستحتاجين الى ثمن التذكرة إلى توركاي ثم بعض المال حتى

تجدي عملا ».

«لدي نقود كان أفري يعطيني بعض النقود كمصروف جيب وتبقىّ منها معي ما يكفي لسفري . طبعا سأرد كل هذا بمجرد أن يمكنني ذلك ».

«إنه لن يسمح لك . إنه ولد طيب ولكنه تصرف تصرفاً سيئاً الليلة لأنه كان يشعر بالغيرة . يجب أن تغفر دائما للرجل غيرته يا ليجيا لأنها في الواقع إطراء لك».

قالت ليجيا وقد صعد الدم إلى وجهها :

«إني أغفر له بالطبع، لقد كان عطوفاً لأقصى درجة بالنسبة اليّ وقد رددت جميله بأن ذهبت الى كوخ روبرت . واليوم بالذات بينما هو في بلايموث ! لا بد أن الأمر يبدو وكأني انتظرت غيابه عن عمد لأذهب ».

ثم أضافت :

«الناس الطيبون لديهم أحياناً لمحة من القسوة تكون أكثر إيلاماً مما لو صدرت عن الأشخاص الساخرين».

«تقصدين أشخاصاً مثل روبرت ».

«نعم أقصد ذلك . فالشخص الآخر لا يمكن أن يصاب بخيبة أمل. فبالنسبة اليه ليس هناك ملائكة ولا جنة على الأرض ولا حدائق في الشتاء. الناس جميعاً مختلفون ومن الصعوبة بمكان معرفتهم على حقيقتهم أليس كذلك ؟»

«نعم عندما نكون صغار السن».

شعرت ليجيا بالامتنان للسيدة تشيز لأنها وجدت فيها امرأة متفاهمة معها . ثم قالت السيدة تشيز :

«انظري يا بنيتي ، لن أنصحك بعدم الذهاب ولكن لا تبقي بعيداً لمدة طويلة خاصة بعدما أصبحنا أصدقاء . لا تجعلي كبرياءك تنعك . أفري سيحب أن تعودي وأن تعتبري تشيز منزلا ثانياً لك».

«هل سيحب ذلك ؟ سأفكر في الأمر ؟»

بدت ليجيا حائرة بل وخائفة من الدعوة .

«نعم أرجوك أن تفكري ، البعد قد يغشي البصر ولكنه يجلي البصيرة . والآن افتحي يدك ، سأقدم لك هدية بمناسبة رحيلك ».

«لا ...»

«إنها شيء تافه من أيام شبابي المتعثر.»

كانت السيدة تشيز تبدو ساخرة وهي تفتح منديلا وتخرج منه سلسلة ذهبية دقيقة جدا كشعرتين مجدولتين يعلق بها فرس بحر صغير من الحجر الأزرق الشفاف.

«إنها جميلة أليس كذلك ؟»

«نعم ولكن ...»

«أوه أسكتي - اقتربي لأضعها حول عنقك .»

اقتربت ليجيا على مضض فألبستها السيدة تشيز السلسلة وهي تقول :

«مسكين فرس البحر هذا - يجب أن يوضع على صدر دافىء شاب - ظلّ قابعاً في علبة المجوهرات لسنين طويلة . ها قد بدأت عيناه تبرقان. انه من الماس الحقيقي هل يعجبك ؟»

«كيف لا يعجبني ! إنه لعطف عظيم منك أن تمنحيني إياه - لا بد أنه ثمين للغاية يا سيدة تشيز أليس كذلك ؟»

تمنّت ليجيا أن تقول السيدة تشيز إنه غير ثمين لتجعل قبوله سهلا ولكنها لم تفعل بل أخذت تنظر إلى ليجيا بنحافتها وصغر سنها ثم قالت وهي تبدو قلقة :

«هل تأكدت جيداً من صواب قرارك . إنك أصغر من أن تعيشي بمفردك في هذا العالم .»

قالت ليجيا وقد بدا عليها عدم الثقة :

«أوه - لا أعلم كنت بمفردي في الثمانية شهور الأخيرة - ومهما يكن من امر ، لديّ الآن شيء يجلب الحظ - سأحتفظ به إذا لم يكن ثميناً جداً .»

«طبعا ستحتفظين بفرس البحر بلا مناقشة - أهداني إياه شاب ذهب الى الحرب ولم أره مرة ثانية ، وأنت تشبهينه. إنك مغرية يا ليجيا رغم أنك لا تعلمين ذلك ، لذلك يجب أن تكوني حريصة يا بنيتي في هذا العالم .»

«ذلك المستنقع المتوحش الشاسع.»

أمسكت السيدة تشيز بيدي ليجيا وضغطت عليها بقوة. ثم قامت

وتناولت المصباح فرأت ليجيا وجهها الشاحب المتعب .

«سيدة تشيز .»

«ماذا يا بنيتي ؟»

«أشكرك على كل عطفك .»

نظرت اليها السيدة تشيز ثم قالت :

«ممّ تهربين هذه المرة يا بنيتي ؟ إني أتساءل إذا كنت أنت نفسك تعرفين.»

٨ - بين لندن وكندا

عندما استيقظت ليجيا كان نور الصباح الرمادي يخترق النوافذ . وشعرت وهي مستلقية في السرير أن ما أيقظها لم يكن الأصوات الصباحية التي اعتادت عليها في تشيز سمعت الصوت مرة أخرى. كان صوت برد أو حصى صغيرة تلقى على النافذة القريبة منها. قامت إلى النافذة وفتحت الستائر التي كانت ماتزال مبتلة من المطر.

«أنت !»

رسمت الكلمة بشفتيها فقط عندما نظرت في الفناء مباشرة في عيني روبرت تشيز السوداوين.

ابتسم بسرعة وأخذ يشير إليها لتفتح النافذة.

قالت بصوت عال :

«هل كنت أنت تلقي الحصى ؟»

«نعم - ارتدي ملابسك - أريد أن أتحدث معك .»

نظرت إليه بدون أن تنطق بحرف . كان وجوده هنا غير معقول، ثم اعتراها الغضب من جرأته في المجيء بعدما حدث الليلة الفائتة. فردت قائلة :

«أنا لا أريد أن أتحدث معك - لقد ودعنا بعضنا البعض الليلة الفائتة.»

«ليجيا لاتغلقي النافذة.»

«اذهب .»

«يالك من امرأة لعينة - أريد أن أعرض عليك عملا .»

«عمل ؟»

بقيت ذراعها ممدودة وهي تمسك النافذة بينما تحملق فيه بعينين واسعتين :

«ماذا تعني ؟ أيّ نوع من العمل ؟»

«لا نستطيع أن نناقش الأمر هكذا ونحن نصيح على بعد كروميو وجولييت. سنوقظ كل المنزل.»

«روميو لم يكن يصيح !»

«لو كنت أنت جولييت لفعل - والآن إلبسي وانزلي الى هنا لأني سأعرض عليك عملا اذا كان ذلك يهمك.»

أخذ ينظر اليها في انتظار ردها ولكنها لم ترد للحظات . وأخذت تنظر إليه وهي تتذكر كيف افترقا بالأمس والطريقة التي سار بها في ممر شجر الصنوبر والظلمة تغلفه. كان مشهداً حزيناً وهي متأكدة أنه قصد أن يكون وداعهما الى الأبد. لذلك تعجبت من عودته هذا الصباح ولم تصدق ما عرضه عليها. عمل ؟ نظرت الى عينيه الضاحكتين كالشمس التي تظهر وتختفي عبر البحيرات المعتمة وبرغم أنها كانت محتاجة لأي عمل إلا أنها لم تستطع التغلب على التردد الذي اعتراها .«إني أخشى ذلك الضحك الشرير حول عينيه الذي يكرمش الجلد حتى الشعر.»

مرت كلمات شيلي بمخيلتها قبل أن تقول له :

«حسناً سأرتدي ملابسي .»

عندما وصلت الى الفناء بعد دقائق كان نور الصباح قد ازداد إشراقاً والعصافير تتناثر في الحديقة خلف الباب الأخضر . وكان روبرت يقف بصبر نافد . قالت ليجيا بنفس متقطع :

«أهلا !»

استدار ناحيتها :

«إنكن أيتها النساء تستغرقن وقتاً طويلا لترتدين بعض الملابس.»

«كان يجب أن أغسل وجهي .»

«كان يجب أن تستحمي أيضا . فأنا ليس لدي عمل طوال اليوم !»

«أما أنا فمشغولة».

نظر إليها وعندما لمس فجأة البقعة الزرقاء بجانب عينيها تراجعت.

«من الذي ضربك ؟»

«لا شيء . هل تريد أن نتكلم هنا ؟»

«لا . ليس هنا».

أمسك معصمها وفتح باب الحديقة. لوثت الأعشاب الطويلة المبتلة أحذيتهما وشعرت ليجيا برطوبة الأعشاب فتذكرت العاصفة.

«هل سببت العاصفة أضراراً كثيرة ؟ قال ديفيد الليلة الماضية إن العاصفة القوية قد تؤدي إلى فيضان خاصة أن سور البحر في برنشام متهدم».

«هل قلقت علي يا ليجيا ؟»

كان يضحك بصوت خفيض فسحبت يدها بحدة من يده.

«ذلك العمل الذي ذكرته .. ما هو ؟»

«تمثيل دور ابنتي في رواية «العاصفة هي ميراثي».

أفقدتها الصدمة القدرة على الكلام وأخذت تنظر إليه بتمعن :

«هل أنت جاد ؟»

«العرض حقيقي أيتها الساحرة الصغيرة . كان يمكن أن أعرضه عليك الليلة الماضية لكني لم أفكر في الأمر».

قالت وهي تكاد تبكي :

«كنت مشغولاً باتهامي بالغش... اتركني سأعود الى مسرح الدرجة الثانية».

«لا لن تعودي».

جذبها فاقتربت منه فجأة :

«أيتها البلهاء هل تعتقدين أني لا أعرف كل شيء عن مسرح الدرجة الثانية وعن التجول الدائم ؟ هل تظنين أني لم أحتل خشبة تلك المسارح المتخلفة ولم أتقلب في سرير . غريب فراشه كقطع الفحم».

هزها فتراقص شعرها وبرقت عينا فرس البحر الماسيتان بخوف وهو يتأرجح في سلسلته.

«طبعاً أنا أعلم وأقول لك إنك لست مضطرة للرجوع إلى مثل هذه المسارح. هل

تسمعينني ؟»

كانت ترتعش وظهرت الكدمة على عينيها كبقعة حبر . بدا لها كل شيء غير حقيقي . هي ورويرت شخصان يمثلان مشهداً من مسرحية.

«أوه هيا . فلتنطقي بشيء».

تكلمت بطريقة آلية :

«ليس لدي خبرة في المسارح الكبرى ولا أعتبر نفسي الشخص المناسب للدخول في ذلك المسرح. وأنا لا أفلح في أي دور إذا لم أكن مقتنعة به كما أن شكلي غير جميل».

«أرى أن شكلك ليس جميلاً ولكن الدور ليس دور ممثلة في كباريه. وأي نقص في خبرة المسارح الكبرى لن يضايق فنتون لأني إذا استخدمك .. هل هناك شيء آخر ؟»

«أنا..»

نظرت بعيداً عنه وأخذت تراقب أوراق الشجر وهي تتساقط.

«لا أظن أننا نستطيع العمل معاً».

«لماذا ؟»

«لماذا ! هل نسيت ما قلته لي أمس عندما اعتبرتني غشاشة. ألا تشعر بتأنيب الضمير عندما تضايق الناس ؟»

«هل كنت أضايق الناس لو كنت أستطيع أن أشعر بتأنيب الضمير ؟»

«أوه إني أكره هذه الطريقة في الكلام».

«لاغنى عنها أليس كذلك ؟ لنقل بدلاً من ذلك إني لا أضيع الوقت في الأسف على شيء لا أستطيع أن أغيره».

«تستطيع أن تقول إنك متأسف».

رفعت إليه وجهها الشاحب المجروح واكتسى بوقار الحقيقة مع الألم من كونه شك في هذه الحقيقة من البداية.

ثم سألته ببساطة :

«لماذا لم ترد أن تصدقني أبداً. ولماذا تكرهني إلى هذه الدرجة ؟»

أراد أن يرد عليها معبراً عن غضبه لأنها تسأله عن مشاعره الشخصية ولكنه

لم يفعل ، ومع ذلك فلماذا لا تسأل ؟ إنها لم تستطع أن تستحوذ على ثقته فيها
حتى لو لم يعجب بها.

قالت :

«كنت لطيفاً ونحن نشرب الشاي ، لماذا لا تكون هكذا دائماً ؟»

«أنا لا أدري حقاً ! هيا لنتفق على موضوع الرواية . أنت تحتاجين الى عمل وفنتون لاي يحتاج الى ممثلة ذات وجه صاحبك مثلك . عندما عدت إلى الكوخ أمس تذكرتك وأنت تجلسين مبتلة وتائهة في روبي الكبير فتحققت أنك أنت التي تحتاجها لهذا الدور يا فتاتي العزيزة ـ الدور الذي تقوم به الفتاة التي تدعى «عاصفة» بملابسها المدرسية ونظارتها وعدم قدرتها على كسب حب والدها الأناني ، دور ممتاز كما أن فنتون لاي سيلتمد حقه في استعمال مسرح الغالا إذا لم يستقر نهائياً قبل آخر تشرين الاول/اكتوبر فماذا تقولين؟ هل تريدين الذهاب الى لندن ومقابلته أم لا؟»

«هل يجب أن أقرر الآن وفي الحال ؟»

«نعم يجب أن نتفق قبل أن تتركي تشيز ، إنك ذاهبة أليس كذلك ؟»

«نعم سأترك تشيز وأعود الى تور كاي لأسترد حاجياتي من ذلك المقهى الذي كنت أقيم فيه .»

«كنت أعلم أنك ستعودين ؟»

تكلم بطريقة قاطعة :

«هل أخبرت آفري أنك أتيت إلى كوخي ؟»

صعد الدم إلى وجهها :

«لم أستطع أن أتفادى ذلك ـ كنت ألبس معطفك وتعرفت عليه جريا وكان عليّ مهما يكن أن أخبرهم أين كنت ، إننا لم نرتكب خطأ.»

«إني أتذكر أني عانقتك .»

ابتسم قليلاً ولكن بدون مرح :

«لم أقصد أن أفعل ذلك . فأنا لم آخذك إلى منزلي لهذا الغرض وليس من العدل أن يظن آفري ذلك ـ هؤلاء الناس الأخيار يحبون أشراراً في بعض الأحيان. إنه ذلك التمسك الصارم بآداب الدين والفضيلة ـ الخاطئ، لا بد أن يحترق ـ

سأمسك يدك وأنت في النار ولكن لا بد أن تحترق .»

«من الغريب أن تقول هذا .»

«لماذا ؟»

«لأني أنا فكرت في الشيء نفسه بالأمس. الناس الطيبون يكونون قساة أحياناً.»

انشعرت ونظرت الى وراء ناحية تشيز بأبراجه الرمادية العتيقة المغطاة بالنباتات المتسلقة ، وخلفه السماء الزرقاء ومنحدرات الحديقة الخضراء الباهتة. بدا المنزل القديم وكأنه يتأمل في ذكريات الماضي . كان روبرت يراقب ليجيا . ورأى فمها يرتعش كطفلة متألمة وحائرة ـ سألها روبرت :

«كيف حدثت هذه الكدمة ؟»

«آه. سقطت على السلالم ـ هل ظننت أن آفري مسؤول عنها؟»

«لا أعرف . إنها فكرة غريبة ولكنها ليست مستحيلة . إنه أيضاً من عائلة تشيز»

ابتسم ابتسامته الخاصة وقال :

«من الجائز أن يكون الأفضل لك أن تبتعدي عن كل عائلة تشيز وألاّ تذهبي إلى لندن ـ ولكن الأمر متروك لك ـ أمامك فرصة وإن كانت ليست أكيدة لأن تتركي مسارح الدرجة الثانية وكل متاعبها. هذه فرصة لتكسبي بعض المال وتصبحي مستقلة.»

«أبي كان يتمنى أن أجرب . كان طموحاً جداً في شبابه ولكن طموحه مات بموت أمي .»

«ومتى كان ذلك ؟»

عندما كان عمري أحد عشر عاماً ـ ماتت في المستشفى .كانت جميلة جداً. وكان أبي يقول إن زرقة عينيها كانت كزرقة السماء في كيلارني . فقد كانت أيرلندية.»

«هذا إذاً هو السبب في هذه العيون البنفسجية المحاطة بالشعر الأسود.»

رفع رأسها وقال :

«انظري أيتها الشريدة الغريبة ـ أيتها اللغز الغامض الذي أتى من الهواء ، إني أعتذر الآن عن كلّ ما قلته وما فعلته وخاصة عن الطريقة التي عانقتك فيها

بالأمس.»

قالت بتحفظ غير راغبة في أن تخاطر بنـزول أي بادرة عطف كما فعلت بالأمس . لقد تعلمت ألا تثق كثيراً في الناس :

«أنا قاربت العشرين ... حسناً سأذهب لمقابلة فنشون لاي وأشكرك على اقتراحك.»

«هذا أفضل والآن يحسن أن نعود الى تشيز . ومتى تنوين السفر الى توركاي؟»

«على الفور.»

ثم أخذا يسيران عائدين الى تشيز .

«أستطيع أن أستقل الأوتوبيس من برنشام.»

«هل لديك نقود ؟»

«نعم أشكرك .»

سارا بضع ياردات ثمّ قال فجأة :

«لا تنزلي في ذلك المقهى يالبجيا .»

سحب حافظة نقوده من جيبه الخلفي وأخرج منها ست ورقات ودفعها في جيب سترتها قائلا :

«خذي هذه النقود ـ اعتبريها مقدما من مرتبك إذا أردت . واحجزي لنفسك غرفة في فندق تانافرا إنه مكان محترم وسأحضر اليك هناك الساعة العاشرة صباح غد ونذهب للندن معاً. هل اتفقنا ؟»

«ولكني لست محتاجة للنقود ياروبرت .»

أخرجت النقود من جيبها بضيق ولم تلاحظ ابتسامته القصيرة عندما نطقت باسمه. ومرة أخرى في لحظة عدم رضى مدّت يدها بالنقود :

«أرجوك أن تأخذ النقود. أستطيع أن أسحب بعض النقود من دفتري للتوفير. إنه في حقيبتي في المقهى.»

«ليجيا ـ ألم يخطر ببالك أنك قد لا تجدين حقيبتك في المقهى ـ قلت بنفسك إن صاحبه مريب .»

بدا عليها الذعر:

«ولكن يجب أن تكون هناك . إذ فيها ملا... [illegible] التي لا يمكن أن يستخدمه احد»

«هذا صحيح ـ ولكن صاحب المقهى ربما يكون قد تخلص من الحقيبة. يجب أن تضعي هذا الاحتمال في اعتبارك. هل تودين كريهة لدرجة أنك تفضلين أن تجدي نفسك في توركاي بلا قرش في جيبك؟»

«لا ـ بالطبع لا.»

«إذاً احتفظي بالنقود وإذا وجدت حقيبتك فأنا متأكد أنك ستردين الدين بكل سرعة ولكنك قد تحتاجين هذه النقود.»

شكرته لتفكيره واهتمامه وأخذت النقود ـ وصلا الى باب الفناء وقبل أن يفتحه روبرت قال لها :

«لن تهربي . أليس كذلك ؟ عقدنا اتفاقاً وأتوقع أن تحترميه.»

«سأحترمه.»

وقفت أمامه والهواء يعبث بشعرها وقالت في تردد :

«هناك شيء آخر ... مع ذلك.»

«ما هو ؟»

«جريا ؟ ألن تشعر بضيق من ذلك ؟ إنها لاتحبني كثيراً و...»

بدا عليها الحرج .

«ماذا ؟»

«أظن أن لها رأياً فيما تفعله.»

نظرت نحو الأرض لأنها كانت تكره أن تتكلم في موضوع شخصي ولكن ألم يكن ذلك ضرورياً ؟ إن جريا ستكره كل هذا وستغضب بشدّة لأنه أراد إشراك ليجيا في التمثيل معه.

كانت هناك لحظة سكوت ثم قال :

«هل غضبت جريا عندما تعرفت على معطفي ؟»

«نعم .»

«لا بد أنك تعبت من الغاضبين ؟»

نظرت إليه باندهاش ، فابتسم وقال :

«لا تهتمي بجريدا سأكلمها. والآن هيا ادخلي لتتناولي إفطارك» سار معها حتى البهو ثم ذهب ليرى جدته. كانت يد ليجيا ترتعش وهي تفتح باب غرفة الطعام. كان أفري يتناول إفطاره ويقرأ الصحيفة ولم تكن جريدا قد حضرت بعد.

عندما سمع خطواتها ترك الصحيفة وقال :

«صباح الخير».

كان ككل صباح إلا أنه لم يبتسم بتلك الطريقة الدافئة.

قال وهو ينظر الى شعرها الذي شعثه الهواء:

«كنت في الخارج أليس كذلك ؟»

«نعم».

«هل كنت مع بوب ؟»

«نعم».

«هل لي أن أعرف ماذا يجري هنا ؟ إنك تحت مسؤوليتي طالما أنت تقيمين هنا، هل تعرفين ذلك ؟»

«لا شيء يجري يا أفري - روبرت يظن أني قد أستطيع الحصول على دور في المسرحية الجديدة التي يمثلها - لهذا حضر الى تشيز هذا الصباح ليسألني إذا كنت أحب أن أذهب وأقابل المخرج في لندن».

«وستذهبين ؟»

«نعم».

«آه».

كان أفري يمسك ملعقة يعبث بها والآن ألقاها على الفرش.

«لقد غيرت رأيك تماماً فيما يختص بروبرت أليس كذلك يا ليجيا ؟ كنت تقولين إنه يخيفك - والآن ألا يخيفك ؟»

«عندما كنت مصابة بفقدان الذاكرة كنت أخاف من أي شخص مرتبط بالمسرح إنك تعلم ذلك يا أفري».

نظر اليها أفري بتجهم :

«هل أعلم ذلك ؟ مهما يكن من أمر فإن روبرت ليس فقط مرتبطاً بالمسرح،

ولكنه ابن رجل انتحر عمداً بإغراق نفسه لأنه كان أضعف من أن يواجه الحياة، ولأنه لم يستطع إسعاد زوجته، ولأنها هي كانت تريد أن تتركه. من الجائز أنه لم يقصد أن تموت معه، ولكنها برغم ذلك ماتت. وقد ترك ذلك أثره على بوب وجعله رجلاً ذا مزاج سوداوي غير مضمون. رجل لا يمكن الثقة فيه لأنه هو لا يثق في الناس. أنه يوجه دائماً الضربة الأولى ولا يهمه إذا أصابت صديقاً بدلاً من أن تصيب عدواً... ليجيا».

مال أفري ناحيتها وأخذ يتأمل ملامحها وعينيها ووجهها ثم قال :

«إنك كنت دائماً تشعرين بهذا في بوب وكان يقلقك عن وعي أكثر مما كانت تقلقك ارتباطاته المسرحية لا شعورياً. والآن تقولين إنك ستذهبين إلى لندن معه ! لا أستطيع أن أتركك تفعلين ذلك ! لن أتركك تفعلين ذلك».

قام وذهب إليها حول المائدة وأمسك بيديها وضغط عليهما وهو يكاد يسحقهما.

«كان يجب أن أخبرك الليلة الماضية. ولكن موضوع الكوخ... مهما يكن من أمر فلننساه. عندما كنت في بليموث كان لي حديث طويل مع ماكس ينتس. حديث هام وممتع. إن له عيادة في تورنتو ويستعمل الأطباء طرق العلاج التي أستعملها تقريباً. وقد دعاني ماكس لأذهب هناك لفترة. وقد فكرت في الأمر أثناء رجوعي من بليموث الليلة الماضية - وأظن أنني سأذهب - ما رأيك في أن تأتي معي ؟»

«آتي معك ؟»

كررت كلماته وهي مندهشة :

«إلى كندا ؟ ولكن يا أفري».

«نعم لم لا ؟ يمكن أن نحول رحلتنا إلى رحلة شهر عسل».

كانت يداه دافئتين واختفى تماماً أفري البارد الغريب. إنه الآن أفري الذي تعرفه وهو يقدم لها الراحة والحماية وهي في أشد الحاجة إليهما... يقدم لها نهاية لوحدتها.

«لا».

قالتها بعنف وسحبت يدها من يديه.

«الأمر ليس بهذه البساطة ! وهذا تصرف غير سليم ! ألا ترى ؟ هذا الصباح لم

أكن أعلم ما سأفعله . كنت منزعجة وقد حضر روبرت ووعدته بالذهاب معه إلى لندن .»

«بوب . إنه لا يمكن التنبؤ بما سيفعله ـ إنه كالهواء، كيف أشرح لك.»

«حاولتم جميعاً أن تشرحوا لي ـ تكلمتم جميعاً عنه . تكلمت جدتك عنه، ولكن أعلم فقط أنه كان طيباً معي هذا الصباح ـ جعل الأمور تبدو أقل يأساً عندما طلب مني الذهاب معه إلى لندن ـ إن فنتون لاي رجل مهم في عالم المسرح يا أفري وفرصة لقائه ليست متاحة للجميع.»

«حسناً .»

تحول عنها وجذب غليونه من جيبه ووضعه في ركن فمه.

«حسناً، إذا كان هذا ما تريدينه. إنها حياتك يا ليجيا ـ ولن أفرض نفسي عليك.»

سار ناحية الباب ثم استدار وقال :

«وماذا عن جردا ـ هل علمت بنوايا بوب ؟»

«جردا ؟»

«نعم هل أخبرها بوب ؟»

«سيخبرها .»

«قد لا يعجبها ذلك .»

«لا، لقد قلت ذلك لروبرت ـ لا أظن أنها ستكون مسرورة.»

«إذاً ما الذي ستفعلينه إذا فشلت الفكرة.»

«لم أفكر ـ ولكن لا أظن أنها ستفشل ـ لا أظن أن أحداً أياً كان يمكنه أن يمنع روبرت من أن يفعل ما يريد.»

ولكن أفري قال بعناد :

«جردا قد تفعل ذلك ـ إنها قد تفعل ذلك ـ إنها جميلة جداً وروبرت رجل .»

«إنه ممثل أولا ـ إنه شيء غريب يا أفري ، ولكن كل العاملين بالمسرح لا يضعون حياتهم الشخصية في المقام الأول.»

«هل أنت عضو متحمس لهذه الدرجة في مهنة التمثيل ؟»

قال أفري بنغمة من السخرية في صوته الحاد :

«وأنا أشعر شعوراً قوياً أنك تضعين المسائل الشخصية قبل المسرحية. ولهذا السبب حاولت الهروب منها عن طريق فقدان الذاكرة ـ لذلك تأكدي جيداً أنك لا تفطنين إذا أنت عدت إلى المسرح.»

«وماذا تعني ؟»

«قد يعود إليك فقدان الذاكرة .»

«لا ؟»

«نعم إذا حدثت لك الضغوط نفسها التي أدت إلى حدوثه من قبل.»

«ولكني لا أستطيع أن أخذل روبرت ـ إن هذا سبيله.»

«اللعنة على روبرت .»

قال أفري بغضب وضيق شديدين :

«منذ متى يستطيع روبرت أن يتألم ؟ إنه مغلف بدرع يزداد سمكاً مع الأيام. إنه لم يبك وهو طفل عندما أخبرته جدتي بوفاة والده ووالدته ـ أنا الذي بكيت . أليس هذا غريباً.»

«لا يا أفري ـ إن الذين يبكون هم المحظوظون.»

«محظوظون جداً ؛ هل سأبكي لأني لن أخذك معي الى كندا وهل سيجعلني هذا أشعر بالراحة ؟»

قبل أن ترد كان قد خرج وصفق الباب . بقيت ليجيا للحظات طويلة تنتظر لعله يعود ولكنه لم يعد.

٩ ـ هل يعجبك منزلي ؟

كان فندق تاناغرا الفخم مبنياً فوق الصخور الحمراء المطلّة على ميناء توركاي . في الصيف يعج بالأزهار والورود الزاهية، لكنه في هذا اليوم من اكتوبر /تشرين الاول يبدو مكتئباً كفتاة ارتدت ملابس الصيف وفوجئت بجو الشتاء. النوارس الرمادية والبيضاء تطير من البحر فوق مداخن الفندق . والمدفأة مشتعلة في غرفة الانتظار.

جلست ليجيا بجانب نافذة تطلّ على الميناء وقد ارتدت ملابسها وهي تنظر بقلق ، تارة إلى البحر وتارة أخرى إلى الساعة ثم الباب. قاربت الساعة العاشرة وسيصل روبرت بعد قليل . وهي خائفة ومليئة بالفضول وتشعر ببعض الصداع. لم تنم تقريباً هذه الليلة فقد أقلقها وداع أفري .

لم تكن تعلم أنها مغرمة بأهل تشيز إلاّ عندما ودّعتهم . أفري الجاد بشعره الأشقر و تانر العجوز الذي قال لها :«من سينظف ممرات الحديقة الآن؟»

لم يكن من المفيد أن تفكر طوال الوقت في تشيز . ولكنها لم تستطع أن تتوقف عن التفكير فيهم . فالوجوه التي تعرّفت عليها في تشيز تطاردها. بدت السيدة تشيز وقد بلغت من العمر عتياً ضعيفة وهي تجلس على كرسي في غرفة الجلوس الخاصة بها تحيطها صور زوجها وأولادها.

لم تكن جردا هناك عندما غادرت المنزل وكان هذا هو الشيء الوحيد المريح في ذلك الصباح المرهق . ولكنها لم تفهم السبب إلاّ بعدما ركبت الباص . فلا بدّ

أن روبرت أخذها الى الكوخ، هذا هو التفسير الوحيد. وهناك على الأرجح سيخبرها بنواياه فيا يختص بمسرحية «العاصفة هي ميراثي» ـ ولم تجد ليجيا صعوبة في تصور كيفية تقبل جردا لهذا الخبر ـ لابدّ أنها ستبني عليه أسوأ الاحتمالات خاصة أنه بعد زيارة ليجيا للكوخ والتي كانت جردا غير مطمئنة لها.

ابتسمت قليلاً ولكن الابتسامة ماتت عندما تذكرت ما قالته لها جردا في الشرفة في تشيز من أن لها «حقوقاً على روبرت.» وإيحاءاتها التي تعني ما تقصده بكلمة حقوق. لم تكن ليجيا تريد أن تعرف ذلك فهي تعتبر أن الافصاح عما يجري بين جردا وروبرت عندما يكونان على انفراد شيء رخيص ومبتذل. ذكرها ذلك بكلمات لونغريف

«أوه . يالعار يا آنسة. لا يجب أن تُقبّلي ثم تذيعي الخبر»

في هذه اللحظة انفتح باب غرفة الانتظار ودخل روبرت تماماً في اللحظة المناسبة !

كان يعتمر قبعته التي بلل المطر حرفها، بزاوية منحرفة على عينيه وكان بانكر يمشي في إثره. ولكن عندما رأى الكلب ليجيا نبح وقفز عبر الغرفة تجاهها وهو يكاد يسقط على منضدة في فورة انفعاله. ارتفعت الرؤوس وخشخشت الصحف بضيق بينما ابتسمت لهم ليجيا باعتذار وهي تقبل الكلب على رأسه الذهبي. حمل روبرت حقيبة ليجيا وخرج معها من الفندق وهو يقول:

«إذاً لقد وجدت الحقيبة ـ هل كان كل شيء كما هو؟»

«نعم وهذا أسعدني .»

«طبعاً أنا متأكد من ذلك.»

نظرت إليه نظرة فيها عتاب ثم قالت :

«ليس لأني لا أريد نقودك ـ ولكن بسبب بعض الأمور الشخصية التي تهمني والتي لا أستطيع تعويضها . كبعض الصور والخطابات ومذكرات والدتي.»

«انا شخص جامد ياليجيا رغم ذلك أعرف أن هناك أشياء لا تقدر بمال وأعرف أنه لا يمكن التعويض عن الأخطاء بالنقود. ولكن هذا ماكنت أحاوله بإعطائك

تلك النقود»

«أنا لا أصدقك ! انني لم أرفض النقود لأني تصورت أن هذا قصدك ولكن لأني أحب أن أكون مستقلة ـ وقد أخذت فعلا الكثير من آفري».

«ولكن أخذك النقود من آفري لم يضايقك هكذا؟»

«أظن لا . ولكنه كان تصرفاً كريماً منك».

«لم يكن كذلك . كان ضميري يؤنبني فقصدت إسكاته بإعارتك هذه النقود هل هي معك ؟»

«نعم ـ ها هي».

أخذ النقود ووضعها في جيبه بدون أي كلمة أخرى ـ ثم سار إلى أحد محال الحلويات الفخمة ودخله بينما وقفت ليجيا ويدها على طوق بانكر وهي تراقب المحل باندهاش وبدأ المطر يتساقط

قال سائق التاكسي :

«تفضلي يا آنسة».

«آه ... نعم».

سحبت بانكر وصعدت في التاكسي لكنها أطلت برأسها لتراقب روبرت وهو يخرج من المحل حيث تأكدت أنه سيأتي ومعه أكبر وأفخم علبة شوكولاته في المحل. وكانت على حق ! عندما صعد طلب من السائق أن يتوجه الى محطة السكة الحديد ثم وضع علبة الشوكولاته الكبيرة في حجرها.

«روبرت !»

«هل هذه من اللحظات الصعبة ؟»

أخذ يراقبها من تحت قبعته الأنيقة . وردت قائلة :

«إنها لحظة جنون مطلق ـ لماذا اشتريتها ؟»

«لتجدي شيئاً تأكلينه في القطار».

«هل كان ما قلته من سبب إعطائي النقود لإراحة ضميرك ؟»

هز كتفيه . أخذ بانكر يلعق يده .

«في أية حال كان تصرفاً كريماً. كل التصرفات سببها الحاجة الى إرضاء الجسم أو الضمير. فمثلا عندما تربت على بانكر فإنك تفعل ذلك لأن ملمسه لطيف

ولكن هذا لا يقلل من سعادة بانكر وأنت تربت عليه».

«ماذا تقصدين ؟»

«أقصد أنك لا يجب أن تشعر بالذنب بخصوص النقود. و[illegible] حال فقد صرفتها وبإسراف كبير»

ثم ابتسمت بسرور :

«إنها علبة جميلة جداً ! لم أر مثلها من قبل !»

راقبها وهي تحتضن العلبة الكبيرة ثم قال :

«لقد جنيت جزاء إسرافي».

قالها بطريقة تكاد تكون أجنبية . نظرت اليه باندهاش وعندما قابلت عينيه السوداوين تذكرت أنه نصف أسباني . إنه مثل مصارعي الثيران في أسبانيا حسب قول آفري .

وبتلقائية ضغطت على ذراعه وهي تقول :

«أشكرك على الشوكولاته !»

«وأنا أشكرك على الدرس في التواضع».

«ولكني لم أحاول إعطاءك درساً ـ إن بي عيوباً كثيرة ولا يمكن أن أجرؤ على ذلك . وأول هذه العيوب أني لا أستطيع الاختلاط بالناس وليس لي أصدقاء كثيرون. يعتقد البعض أني متعالية ولكني لست كذلك. كل ما في الأمر أني أحب أن أخرج بمفردي لأني عندما أخرج مع الفتيات الأخريات لا ينتهين من الدوران في محلات الملابس والصيدليات».

ضحك وقال :

«ألا تحبين الفرجة على محال الملابس والصيدليات ؟»

«ليس كثيراً. هذا شيء سيء مني أليس كذلك ؟ ربما كان يجب أن أكون صبياً !»

«صبي ؟»

ضحك وضربها بأصبعه على خدها مداعباً .

«هل تظنين أن الصبيان يحظون بكل المتع ؟»

«نعم . وعندما تكون صبيا فلا يهم إذا تصرفت بمفردك . أنا جبانة أيضا ـ لقد أخبرتك أن عيوبي كثيرة».

سكت لحظة ثم قال بجدية :

«هل أنت خائفة مني ؟»

نظرت إليه بسرعة .

«لا تخافي مني يا ليجيا . وعدت جدتي أن أرعاك ـ وأنا لا أخلف وعودي لها ـ لا أجرؤ على ذلك .»

بعد حوالي دقيقة وصل التاكسي الى المحطة فوضع روبرت قطعة رصاص في طوق بانكر ليركب في عربة الحارس . ثم ذهب ليشتري تذاكر القطار . وسارا على رصيف المحطة وكان روبرت يضحك من بانكر الذي سار مطأطأ الرأس.

وداعب بانكر ثم قال لليجيا :

«اتصلت بالسيدة ويلز مديرة المنزل قبل أن أحضر للفندق تاركا لتحضر لنا غداء عندما نصل الى هامستيد حيث أعيش.»

أوصلا بانكر الى عربة الحارس واشتريا الصحف والكتب ثم ركبا القطار. كانت ليجيا قلقة على المكان الذي ستقيم فيه. بالطبع لا ينوي روبرت أن تقيم في منزله ـ إنها لا تستطيع أن توافق على ذلك ـ ولكن روبرت طمأنها . إن مديرة منزله لها أخت تدعى السيدة بيري ولديها بنسيون في سانت ماركس رايز وهو مكان قريب من منزله ويمكنها أن تقيم هناك.

«سيكون هذا مريحاً لأني أستطيع توصيلك للمسرح بسيارتي بدلا من متاعب المواصلات.»

كان القطار يخترق الحقول فانصرفت ليجيا الى كتابها وكانت قصة مثيرة استحوذت على انتباهها. ولكن الليلة القلقة التي قضتها في الفندق واهتزازات القطار جعلتها تستغرق في النوم. أيقظها روبرت بعد ساعتين لتتناول بعض الطعام وتشرب الشاي. تثاءبت وتمطّت ثم ابتسمت وقالت :

«كنت تعبة ـ كم من الوقت ظللت مستغرقة في النوم.»

«ساعتين كاملتين ـ ولكنك تبدين أحسن حالا الآن ـ ها هو الشاي وسندويتش السجق.»

«إني أتوق بشدة لأي مشروب .»

شربت الشاي بلذة ثم أتبعته بالسندويتش.

قال باقتضاب :

«ليجيا ـ هناك شيء أريد أن أتحدث فيه معك .»

نظرت اليه متسائلة

«فكرت في ذلك وأنا أراقبك وأنت نائمة. إنه يدور حول ذهابك لمقابلة فنترون لأني أنت غير مضطرة لأن تقابليه ـ أنا أعرف أن هذه فرصة تتمناها الكثيرات بغض النظر عن مشاعرهن الشخصية. ولكن إذا كانت فكرة العمل معي كريهة بالنسبة اليك فأرجو أن تخبريني بذلك.»

نظرت الى الأرض وهي غير قادرة أن تفهم السبب وراء كلامه هذا ـ ظنّت أن الأمور قد استقرت وأن مخاوفها وشكوكها خفّت منذ استقلا القطار من ديفون وابتعدا عن تشيز . وهي لاتريد إثارة المشاكل من جديد.

«ماذا تقول ذلك ؟»

«لماذا ؟»

قال بغضب :

«هل تريدين حقاً أن أخبرك لماذا ؟»

«بالطبع .»

«ذكرت اسم أفري في نومك ـ هذا هو السبب . وأنا لست غبياً كما أني لست قاسياً كالصخر. كان يجب ألا أتدخل بالأمس ـ ولكن لم أكن أعلم الوضع بينك وبين أفري ـ كنت تبدين الفتاة المناسبة تماماً لدور «عاصفة»»

«ماذا ستفعل الآن ؟»

قالت بهدوء :

«نذهب الى لندن .»

«هل مازلت تريدين الذهاب ؟»

«نعم ـ وقد وصلنا تقريبا ـ ولا يمكن إرجاع القطار أو الساعة وأنت تبدو مستعداً للمنازلة ـ وأنا متأكدة أنك تريد أن تجرب .»

«نستطيع العودة وما عليك إلا أن تطلبي ذلك.»

قالت بتحد :

«أنا أريد أن أذهب لمقابلة فنتون لاي بينما أنت تتردد لا أنا».

قال وهو يضحك :

«إذاً سنذهب».

ثم أشعل سيكارته واسترخى في كرسيه ثم وجد يد ليجيا وضغط عليها. كانت لفتة رقيقة بشكل خاص. لم تسأل نفسها لماذا فعل ذلك ولكنها تقبلتها.

كان المطر مازال يسقط عندما وصلا إلى لندن وكانت الأرصفة تلمع خارج محطة بادنغتون. كانت الأوتوبيسات تسير وهي تخوض في الماء. والأضواء تحولت إلى أشكال غريبة بفعل المطر ودخل الغسق مبكراً بينما سقط المطر على السطوح كدخان رقيق.

«يا إلهي ! إنها لندن !»

وانطلق بهم التاكسي في زحمة المرور.

توقف التاكسي أمام منزل من الطوب الأحمر له سقف مثل قبعة الساحرة أو على الأقل كان هذا هو أول انطباع لليجيا.

كانت الأشجار العالية تحف بجانبي المدخل وكانت النوافذ الطويلة في إطارات متقاطعة. ويظلل الباب الأمامي سقف شكله غريب كالمظلة مستند على أعمدة رفيعة.

كان تشيز هو المثل الكامل للأبنية القديمة الراسخة ولكن الوصف الذي قفز إلى ذهن ليجيا لهذا المنزل هو أنه غير تقليدي ومثير. كما لو كان روبرت أراد أن يحيط نفسه بجو المسرح في كل تفاصيل حياته... قال روبرت وهو يدير المفتاح في الباب :

«حسناً يا ليجيا – هل يعجبك منزلي ؟»

«نعم».

قالت ذلك ببساطة ودخلت للبهو.

١٠ – موعد مع القدر

انبهرت ليجيا بردهة منزل روبرت ووقفت تنظر حولها بإعجاب واستمتاع بريء بكل ما ترى. ابتسم روبرت كأن اعتبرها طفلة.

كانت أرض الردهة من البلاط الصغير الأبيض والأسود وقد زُيّن بعضه برسومات من الأزهار والبعض الآخر بمشاهد دقيقة ملونة عن الأساطير الاغريقة. كانت أرضية فخمة مرحة تتناسب مع المكتبة. وتمّ تحويل البهو المستدير الى مكتبة.

وكانت الرفوف المثقلة بالكتب ترتفع حتى السقف. وقد تركت بها بعض الفراغات لوضع بعض تحف للزينة. كأواني السك الملون وتماثيل صغيرة لبعض شخصيات المسرح الشهيرة إلى غير ذلك من التحف الصغيرة.

ثم انتقلت للفرجة على مجموعة تحف زجاجية من القرن السابع عشر. كانت هناك بعض الكؤوس البوهيمية من الياقوت والذهب. ومجموعة جميلة من الأكواب الألمانية الكبيرة عليها بعض الرسومات وكانت إحدى تلك الرسومات تمثل ساحرة شابة تمتطي مكنسة وشعرها الأسود يطير في الهواء وقد سقطت ملابسها الحمراء بلا خجل عن أكتافها.

ضحكت ليجيا وهي تمسك بالكأس التي رسم عليها شكل امرأة ساحرة وقالت :

«هل هذه صورتي أنا ؟ لقد شبهتني بالساحرة عندما وجدتني تحت شجرة القليق في المستنقعات. هل تذكر ؟»

نظر روبرت من ورائها الى الكأس ثم قال ضاحكاً :

«اه... أظن أن هناك ملامح مشتركة.»

وكان هناك في مواجهة الباب سلم ذو درابزين حديدي أبيض الطلاء يؤدي الى غرف المعيشة والنوم... وكان المطبخ وملحقاته في خلفية المنزل ويتصل بالردهة بممر وقد اختفى بانكر في هذا الممر ليبحث بدون شك عن طعامه من العظام.

سار روبرت الى الممر وصاح منادياً :

«ياوودز ! أين أنت ؟ نريد غذاءنا !»

رد صوت ايرلندي من الممر :

«أوه... إنك نافذ الصبر كجامع إيجارات من دبلن .»

وبعد لحظة ظهرت سيدة صغيرة سمينة بيضاء الشعر وهي تمسح يديها في مشلمتها.

فكرت ليجيا أن وودز أيرلندية مثل ميف . واعتراها شعور بالمرح الصبياني ـ ابتسمت للسيدة وودز وقد اعتراها الخجل.

وقفت مديرة المنزل وهي تتأملها بقوامها النحيل ومعطفها القديم والبيريه المائلة على رأسها فصدمها مظهرها.

لم يكن غريباً على روبرت أن يعود الى المنزل مصحوباً بسيدة . قال:

«ياليجيا ـ هذه السيدة وودز ـ إنها كثيرة الشكوى كالشيطان ولكنها طاهية ممتازة وإلا ما احتفظت بها.»

«أنظر من يتكلم عن الشيطان ! إنك أكبر منافس له ياشي !»

رد روبرت ضاحكاً :

«يا وودز . ألا تقولين لي كلمة واحدة طيبة بعد كل هذا الغياب.»

قالت بلهجتها الأيرلندية:

«نعم . بعد أن أخبرني ماذا حدث للكلب العزيز وكيف فقد عينه. لقد تألمت كأنما قلبي انفطر بسكين وأنا أراه بمشي بعين واحدة. والآن أخبرني كيف حدث هذا ولماذا لم تعتن به جيداً.»

قال روبرت مقلداً لهجتها الأيرلندية:

«عزيزي وودز يحزنني أن أسمع أنك تألمت بشدة كأنما قلبك انفطر بسكينه»

انفجرت قائلة :

«الآن لا تراوغ ـ إن لي عليك حقوقاً ـ خدمتك سنين طويلة واحتملت كل متاعبك وقدمت الطعام لصديقاتك وأستحق الجحيم مأوى لي لكثرة ما كذبت عليهن وأخبرتهن أنك غير موجود بينما كنت جالساً هنا في هذا البيت.»

أكدت على الكلمات الأخيرة بالتلويح بقبضة يدها مما ذكر ليجيا بوالدتها ميف عندما كانت تتشاجر مع والدها. الأمر الذي جعلها تريد البكاء والضحك في الوقت نفسه.

قال روبرت وعيناه تلمعان

«إن لك لساناً مثل لسان كاثرين .»

«هل هي واحدة من تلك الأنيقات الفارغات ؟ إن لك ذوقاً عجيباً فيما يختص بالنساء ياروبرت تشيز . وإن كان ذوقك أفضل بالنسبة الى الكلاب . وبمناسبة الكلاب ـ كيف أصيب كلبي العزيز؟»

قال روبرت :

«دخلت شوكة في عينه. وكانت الآنسة باير ضيفة عند ابن عمي وخرجت للنزهة سيراً على الأقدام فوجدته مصاباً . فأخذته الى منزل تشيز ثم على الفور إلى الطبيب قبل أن يتلوث الجرح. ولحسن الحظ أنه استطاع إنقاذه الا كان يمكن أن تفقده.»

حدقت السيدة وودز في ليجيا وكلها فضول وقالت :

والحمد لله !»

أوضح روبرت :

«حضرت الآنسة باير إلى لندن لتتدرب على دور في مسرحيتي الجديدة ـ إنها ممثلة.»

نظرت بسرعة الى ليجيا :

«هل هي ممثلة ؟ إنها لا تبدو كذلك.»

قال روبرت لليجيا :

وهذا إطراء لك لأن ووتز تعتقد أن الممثلين والممثلات يطلون وجوههم ويتزينون من أجل الشيطان»

قالت السيدة ووتز بصراحة :

«إنها ليست مهنة تستحق أن أضع ابنتي فيها ـ لأني لن أنام الليل من القلق عليها ـ هل تعرف لماذا ؟ لأن النساء والرجال عندما يختلطون بحرية كبيرة كما يفعل الممثلون والممثلات ، يعلمون كل شيء عن بعضهم البعض ، ويؤدي رفع الكلفة بينهم إلى أن يكرهوا القوانين التي تجعل من الحب لعبة نظيفة. النساء يجب أن يكنّ محترمات ومحتشمات وهذا لايمكن طالما يخرج عليهن الرجال بلابسهن الرقيقة»

قال روبرت وهو يوجّه إليها شبه اتهام:

«أيتها الفيلسوفة العجوز !»

«أنا لست فيلسوفة ولكن أختي عملت في هذه المهنة وانتهت مع رجل ـ إذا كان يمكن أن نسميه كذلك ـ لا يعمل إلا عندما يريد ومن حسن حظها أنه توفي والآن يجب أن أعدّ لكم الغداء ـ لابد أنكما جائعان»

ذهبت وبقي روبرت جالساً على الأريكة السوداء يدخن سيكارته ثم ضحك بهدوء وقال :

«ووتز شخصية نادرة ـ كان يجب أن أتوقع أنها ستصدم عندما ترى عين بانكر»

ثم نظر الى عيني ليجيا وقال :

«من حسن الحظ أنك خرجت للنزهة ذلك المساء»

«نعم أظن ذلك»

لاحظت أنه توقف عند كلمة النزهة كأنه يعلم أنه كان السبب في خروجها ذلك الليل القاتم بعدما صممت على ترك تشيز إلى الأبد.

تساءلت ماذا كان سيحدث لو أن بانكر لم يغضب ولم تعد به الى تشيز؟ وأين كانت ستكون الآن ؟

بدا كأن روبرت قرأ أفكارها.

«نعم إنها لعبة غريبة ، أليس كذلك يا ليجيا ؟ لو فكرنا في كل الاحتمالات في

حياتنا»

ابتسم بشيء من الحزن ثم وضع ذراعه على كتفيها وسار بها الى السلم وهو يسأل :

«هل سنجد إجابات لكل تساؤلاتنا يا ليجيا ـ في يوم من الأيام، أم سنبقى في الظلام»

أجابت ليجيا بسرعة:

«ليس في الظلام !»

ضغط على كتفيها فشعرت أنه يكره الظلام هو أيضاً.

صعدا السلّم وعندما وصلا إلى غرفة الطعام قال :

«أظن يا ليجيا أني سأستمتع بك كاتبة على المسرح»

خلع عنها قبعتها وألقى بها على كرسي ووقف ينظر إليها ويفحصها ، كما يفحص أحد التحف التي يقتنيها

«أظن أننا نبدو مقنعين معا . نحن الاثنين خلقنا ببشرة داكنة ولسنا جميلين على الاطلاق »

ثم ضحك قائلا :

«لا بد أنك كنت طفلة مضحكة جداً»

«نعم وكان شعري كذيل الحصان. وكان أبي يكره ذيل الحصان ، وفي أحد الأيام قصه لي وعندما عادت أمي من السوق طار صوابها وأخذت تطارده برغيف خبز طويل»

فجأة ارتعش فم ليجيا وانهمرت دموعها فقد هزتها هذه الذكريات القديمة الحزينة المضحكة التي كادت تنساها.. قالت وهي تبكي :

«إني أفتقدهما..إني أريدهما ـ لا أستطيع أن أتحمل فقدهما معا»

«اسكتي ـ لا تبكي »

جذبها إليه برفق شديد وأخذ يواسيها

«لديك ذكريات جميلة عنهما ـ هذه الذكريات كنز حقيقي . لديك ضحكاتهما وحبهما وشجاعتهما ـ ألا تعلمين أن هناك من هو مستعد لأن يعطي حياته في مقابل أن يمتلك مثل هذه التركة»

جلست مستندة إليه ـ لم يتكلم بهذه الطريقة من قبل ، بهذا الجد والاخلاص،
كاشفاً عما بمخيلة نفسه ـ كانت ذكرياته هو عن اللذين يتذكران وجوده من وقت
لآخر ويزورانه في المدرسة أو في تشيز ـ وكانت تركته الاضطراب وعدم
الرضا والمأساة.

«لا تبكي لأن ورنز ستظن أني كنت أضايقك».

ذهب روبرت الى المائدة وأحضر كأسين من الشراب وعندما عاد كان على
وجهه ذلك القناع الساخر مرة أخرى. ولكنها أدركت الآن حقيقة هذا القناع
وشعرت أن الدموع التي ذرفتها كانت أيضاً من أجل هذا الصبي الذي لم
يستطع البكاء عندما مات والداه والذي لم يبك لأنه كان خائفاً.

تربى في تشيز ورأى نفسه يصبح أكثر شبهاً بصورة زوفاني كل يوم.
وكان يشك في كل تصرف يفعله منذ أخبرته جدته أن والديه غرقا. واضطرت أن
تخبره بالحقيقة. وأصبح انتماؤه الى عائلة تشيز فكرة مسيطرة عليه تقض
مضجعه ومع ذلك كانت ملامحه وهو يقف أمامها الآن تبين أنه ورث دم أمه
الأسباني أيضاً.

ألم يخطر بباله أنه يشبه أمه أكثر مما يشبه والده أو أم تشيز ؟

مساء الأربعاء أخبرها روبرت أنه رتب موعداً للمقابلة فنتون لاي في
اليوم التالي فاستقلت الأوتوبيس وذهبت في الصباح واشترت فستاناً وزوج
جوارب بتسعة جنيهات وفي طريقها للعودة كان الخوف يملأ قلبها من المقابلة
المنتظرة. قد يرى فنتون لاي أنها غير مناسبة على الاطلاق للدور الذي ستقوم
به ، لأن ليس لديها أي خبرة في المسارح الكبرى وكان يهمه أن يكون كل
الممثلين على أعلى درجة من الاجادة.

عادت الى منزل السيدة بيري ، ولم تتكلم كثيراً أثناء تناول الغداء .
قدرت السيدة بيري شعورها لقد عملت من قبل في المسرح ولكنها اقترحت
عليها أن تستلقي قليلاً في السرير قبل أن تذهب للمقابلة وقالت لها:
«ستشعرين بالانتعاش كالوردة وستكونين على أتم استعداد عندما يأتي السيد
تشيز».

وقفت ليجيا تنظر الى نفسها في المرآة . لم تعجبها صورتها ـ قالت :

«لا أبدو أبداً كوردة . أظن أن شكلي ليس جميلاً، إن كلي عظام وظلال ـ لا
أعرف لماذا لا أشبه والدتي أو والدي . كان الاثنان ملفتين للنظر».

هزت كتفيها وسارت بعيداً عن المرآة .

قالت لها السيدة بيري :

«لا تقلقي . إن لك وجهاً آسراً . وهذه هي الحقيقة».

«آسر ؟»

ضحكت ليجيا كثيراً وهي تتبع السيدة بيري خارج المطبخ.

«حسناً. أرجو أن يظن فنتون لاي الشيء نفسه ـ لأني لا أعرف ماذا أفعل إذا
لم أحصل على هذا العمل».

«أوه ! دعك من هذا الكلام ! السيد تشيز له اتصالات كثيرة وسيجد لك
عملاً آخر»

قالت ليجيا :

«لايمكن أن أبقى عبئاً عليه ياسيدة بيري وأتدخل في حياته. إنه شخص مهم
في عالم المسرح وله أصدقاء ذوو مراكز مرموقة ـ لم أكن أعرف ذلك حتى قابلت
بعضهم ـ كنت أشعر وأنا أجلس بينهم أني بدائية جداً وأني من ممثلات الدرجة
الثانية».

قالت السيدة بيري بشجاعة :

«النجوم انطلقوا كممثلين من الدرجة الثانية. أما بالنسبة الى أهمية مراكز
أصدقاء السيد تشيز ـ فكلها مظاهر بالغزبرتي».

«ولكني وجدتهم ممتازين وأيضاً مخيفين».

«وهل السيد تشيز مخيف أيضاً الآن ؟ بدا لي دائماً أنه ينظر للحياة ولأصدقائه
بسخرية، أم هل أنا مخطئة؟»

«بسخرية ؟ من الجائز ولكنها سخرية مريرة».

«إذاً أنت تعتقدين أنه غير سعيد ؟ لقد سمعت ذلك من مالي . إنها تقول إنه
يحتاج الى زوجة ـ ولكني لا أستطيع أن أتصور مالي وهي تتلقى الأوامر من
واحدة من تلك النساء اللواتي توضع صورهن في المجلات. والآن أعطني هذه
المنشفة واذهبي لتستريحي ـ متى سيحضر السيد تشيز؟»

«حوالي الخامسة . ولكنيّ غير محتاجة للراحة يا سيدة بيري .»

«الراحة لن تضرك ـ استريحي حتى الرابعة ـ ثم سأحضر لمساعدتك في ارتداء ملابسك.»

«حسناً سأذهب .»

سارت ليجيا الى الباب ثم استدارت وابتسمت قائلة :

«إنك طيبة جداً ياسيدة بيري وأنا أحب لهجتك الأيرلندية لأنها تذكرني بوالدتي.»

قالت السيدة بيري بسرور :

«يا الهي ! إنك مداهنة كما أن عينيك أيرلنديتان صميميتان!»

كانت قد جاوزت الخامسة عندما دق جرس الباب . وذهبت ليجيا التي كانت قد لبست معطفها الى الباب لتفتحه. وابتسمت لروبرت :

«أهلا ! بدأت أظنّ أنك لن تأتي .»

«ليجيا...»

توقف في الروعة ولاحظت الوجوم على وجهه فذهبت ابتسامتها.

«ما الخبر ! إنك تبدو مشغولا وقلقاً.»

«اتصل أفري بي . أزمة قلبية أصابت جدتي وهو يريدني أن أذهب الى تشيز بأسرع مايمكن.»

أغلق الباب خلفه ورأت وجهه المتقلص وقد بدت التجاعيد واضحة حول عينيه.

«طلب مني أفري أيضاً أن أحضرك معي.»

قالت وهي مضطربة :

«أنا ؟ لماذا ياروبرت ؟»

«قال إن جدتي تطلبك طوال الوقت .»

حدث هرج ومرج في المنزل فقد هرعت ليجيا لتضع بعض الملابس في حقيبتها. واتصل روبرت بمحطة بادنغتون ثم طلب سيارة بينما أعدت لها السيدة بيري بعض الساندويتشات وترموساً من شاي ساخن.

قال روبرت عندما أحضرت ليجيا حقيبتها :

«القطار ينطلق الساعة السادسة وعشر دقائق والساعة الآن تعلن الخامسة وعشرين دقيقة ـ إذا حضر التاكسي بسرعة فسنلحق بالقطار»

ضغطت على يده بدون خجل وشعرت أنها أنضج منه في هذه اللحظة. بدت الرحلة طويلة برغم أنّ القطار كان من النوع السريع كما أنّ الجو كان بارداً ولم تعترض ليجيا عندما جذبها داخل طيات معطفه. ووضع ذراعه حولها. قال:

«أنا سعيد لأنك وافقت على أن تأتي معي ـ لو أني كنت بمفردي لأصبحت الرحلة لعينة.»

«أنك تحبها كل الحب . أليس كذلك ؟»

«نعم إني أحبها ـ إنها الحب الوحيد الحقيقي والمخلص في حياتي . لقد كانت والديّ وأصدقائي ومرشدتي ـ وإذا كانت هذه هي النهاية ـ فأنا سأفتقدها كثيراً.»

«هل ألمح أفري إلى ذلك ؟»

«نعم ـ فهي مريضة بالسكري وعمرها يزيد على الثمانين.»

«أظن أنها لم تكن على مايرام عندما ودعتها يوم الجمعة الماضي.»

لمس روبرت فرس البحر على فستان ليجيا الأخضر الجديد وقال :

«أعطتك هذا أليس كذلك ؟ إنه جميل وكذلك فستانك الجديد ـ هل اشتريته خصيصاً لزيارة فنتون لاي ؟»

هزت رأسها بالايجاب .

«هل أصبت بخيبة أمل لعدم ذهابنا ؟»

«لا يا روبرت .»

كان هذا صحيحاً فقد نسيت كل شيء عن ذلك الموعد وعن المسرحية وتضاءلت أهمية ذلك بالنسبة الى المشكلة التي واجهت روبرت الآن. إن جدته لها مكان في حياته لايمكن لأحد أن يملأه... لا جودا ولا أيّ من تلك الفتيات الجميلات اللواتي يعرفهن.

وصلا تشيز بعد منتصف الليل ـ فتح لهما أفري ـ الذي كان في انتظارهما على الباب ـ قبل أن يدقا الجرس ـ سأله روبرت على الفور.

«كيف حال جدتي ؟»

«إنها مواساكة يابوب ـ هذا كل ما أستطيع أن أقوله»

دخل الجميع غرفة الاستقبال حيث كانت النار تشتعل في المدفأة. سارت ليجيا الى المدفأة ووقفت تدفء يديها بينما تكلم روبرت وأفري عن جدتها.

كان من الغريب أن تأتي الى هنا مرة أخرى. ظنت أنها ستشعر بأنها عادت الى منزلها ولكنها بدلا من ذلك شعرت لحريتها ـ أن تشيز أصبح مجرد منزل كبير فخم ومعتم حيث عاشت بعض الوقت.

قال أفري :

«لابد أنكما جائعان ـ أعددت إلين بعض العشاء، وسأجعلها تحضره.»

جذب الجرس بجانب المدفأة ولأول مرة نظر الى ليجيا مباشرة:

«حسناً فعلت إذ حضرت ، يبدو أن شيئاً ما يشغل جدتي وهي تريد أن تخبرك به شخصياً. وإلا لما طلبت من بوب أن يرجوك أن تحضري ـ أرجو ألا تكون الرحلة أتعبتك.»

«لا إني بخير ـ أشكرك.»

تكلم بطريقة رسمية أحرجتها ـ فنظرت بعيداً وهي تخلع قبعتها وتفك حزام معطفها. أشعل روبرت سيكارة وأخذ يتأمل أفري وهو يقترب من ليجيا ليأخذ معطف المطر منها. أكسبها الفستان الأخضر الجديد رشاقة وليونة. وبدت فجأة كامرأة ناضجة.

أحضرت الطاهية العشاء، وبعدها دخلت جردا .كانت تلبس حذاء خفيفاً وروبا طويلا من الحرير. نظرت اليها ليجيا باستغراب للحظة فقد كان هناك شيء اختلف في مظهرها.

جاءت مباشرة إلى المدفأة وعيناها مثبتتان على روبرت :

«ظننت أن هذه سيارتك رغم أني لم أنتظر وصولك قبل الغد»

نظر اليها بجفاء:

«الغد ! جدتي مريضة جداً ياجردا ومن الجائز أنها تحتضر، هل تظنين أني كنت أستطيع الانتظار الى الغد ؟»

تمتمت :

«أوه لقد أخطأت ؛ ولكني بالطبع متأثرة لمرض جدتك . لاشك أن مرضها أفسد

كل خططك حول مسرحيتك الجديدة. أليس كذلك يا روبرت ؟»

كان أفري يسكب القهوة فنظر اليها بحدة وقال :

«جردا هل تسمحين أن تترك كل المسائل الشخصية الآن ؟ في المنزل مريضة وإذا كنت لا تحترمين المرضى فمن الأفضل أن تذهبي الى النوم.»

هزت كتفيها بشيء من الوقاحة الرقيقة.

«هل تستطيع الكلام ؟ هل لي أن أسأل روبرت كيف تبدو لندن.»

رد روبرت الذي كان يبدو متعباً:

«لندن تبدو في أحسن حال ياجردا .»

كان يمشي بعصبية ثم سأل أفري :

«متى أستطيع أن أرى جدتي ؟»

«ليس الآن يجب أن تنام بعض الوقت بدون إزعاج.»

«هل لديها ممرضة ؟»

«طبعاً.»

«من المؤلم ألا يستطيع المرء أن يفعل شيئاً.»

قال أفري :

«اقترح أن تجلس وتشرب فنجاناً من القهوة ـ إننا نفعل كل ماهو ضروري لجدتنا ولن يجدي الانفعال شيئاً.»

قال روبرت بعد لحظة :

«لاتسكب لي قهوة سآخذ شراباً.»

ذهب لدولاب المشروبات وأحضر لنفسه كأساً كبيرة وشربها في بضع جرعات سريعة وعصبية. وعندما لاحظ أن ليجيا تراقبه قطب جبينه قليلا. فجأة انفتح الباب ونادت الممرضة على أفري. شعرت ليجيا بأن قلبها قد توقف . وخرج أفري من الغرفة . قالت جردا وهي تنفض سيكارتها:

«هذه الانذارات توالت طوال اليوم ـ يبدو أن الممرضة من النوع العصبي.»

ولكن روبرت بدا وكأنه لم يسمعها ـ كان يحدق في الباب الذي خرج منه أفري . وفجأة قامت ليجيا وذهبت اليه وعندما وضعت يدها في ذراعه قال لها:

«إنها تموت ، أنا أشعر بذلك.»

«ياعزيزي ...»

«أنا أشعر بذلك ياليجيا - وعندما تموت لن يكون لي أحد يسأل عني.»

١١ ـ وطار الكروان في السماء

عندما ذهبت ليجيا الى فراشها كان حفيف أشجار الصنوبر يبدو قلقاً ومنخفضاً. لقد أعطيت غرفتها القديمة الفسيحة لكنها لم تستطع النوم لفترة طويلة. كانت تسمع صوت الأشجار وتتذكر وجه روبرت وشعوره بالراحة بالأمس عندما عاد أفري الى غرفة الاستقبال وأخبره أن حالة جدته لم تتدهور كما ظنوا. كانت قد استيقظت وطلبت بشيء من حدتها المعهودة أن ترى حفيدها. فاعتقدت الممرضة أنها تقصد أفري .

وسمح أفري لروبرت بالدخول لبضع دقائق شعر بعدها روبرت بالراحة. تناول بعض الطعام ولكن الحديث أصبح رسمياً بعض الشيء وشعر الجميع ببعض الارتباك . وعندما اقترح أفري أن يذهب الجميع الى النوم شعرت ليجيا بالراحة لأنها ستخرج من جو الغرفة المتوتر. أما أفري فقضى ليلته على أريكة في حجرة جدته ليكون موجوداً في حالة حدوث أي طارىء.

وعندما خلعت ليجيا ملابسها لتنام كانت ترتعش وهي تشعر بتعب بدني وذهني. لكنها قبل أن تنام ركعت بجانب سريرها وتمتمت بصلاة من أجل السيدة تشيز - كانت روحها الشجاعة القوية تنسل من جسمها المتعب ولم تطلب ليجيا من الله أن يبقيها بل أن يعطيها السلام والراحة.

عندما نزلت ليجيا في الصباح كانت جردا أول من قابلها. وكانت تجلس في الصالة وتلبس فستاناً أزرق ولم ترد على تحية ليجيا لها بل قالت :

«أريد أن أتحدث إليك»

دفعت ليجيا يديها في جيوبها ووقفتا تواجهان بعضهما كقطتين غاضبتين.

«أريد أن أعرف لماذا عدت بحق الشيطان. ما الذي تبحثين عنه الآن. هل تظنين أن السيدة العجوز ستترك لك شيئاً في وصيتها؟»

نزل السؤال على ليجيا كضربات صغيرة. ورقت ببرود :

«لن تفعل ذلك. عدت لأن السيدة تشيز طلبت أن تراني.»

ضاقت عينا جردا :

«طلبت ! لماذا تطلب أن تراك ؟»

«لا أعلم.»

صاحت جردا :

«أوه ـ كفيّ عن الرياء. خدعت الجميع هنا بادعائك البراءة... وتحايلت بالطريقة نفسها على روبرت للحصول على ذلك الدور في المسرحية. وجعلته يطارحك الغرام ثم ادعيت أنه جرح مشاعرك الرقيقة البريئة.»

أنكرت ليجيا بحرارة:

«لم يطارحني روبرت الغرام أبداً ؛ عندما ذهبت الى الكوخ ذلك اليوم لم نفعل أكثر من تناول وجبة لطيفة وكلام عن المسرح وهذا ما أعاد ذاكرتي إليّ.»

ردت جردا بصوت عال:

«قال أقري إن ذاكرتك تعود فقط إذا مررت بالتجربة التي أدت إلى فقدانها ـ وذلك المدير طارحك الغرام.»

ارتفع صوت روبرت وهو آت من غرفة جدته وقد بدا عليه التعب وعدم النوم:

«يا جردا إن اهتمامك الدائم بكلّ أموري الغرامية بدأ يضايقني ـ صباح الخير ياليجيا لقد دخلت لأرى جدتي.»

«كيف حالها . هل هي أحسن ؟»

«إنها مدهشة.»

ابتسم قليلاً فزال بعض التوتر منه واستمر يقول:

«خلعت المرضة خاتمها الياقوت الكبير لأنه قد يكون ثقيلاً عليها. لم أر جدتي

بدون هذا الخاتم. إنها تلبسه منذ كنا أطفالاً ـ لقد وبخت جدتي المرضة بكلّ سرعة بديهتها القديمة...»

عضّ على شفته ومرر يده في شعره وقال :

«أريد فنجاناً من القهوة .»

ثم دخل الى غرفة الجلوس :

هرعت جردا وراءه وأمسكت بذراعه:

روبرت : أنا لم أقصد حقيقة ماقلت ـ إنك تدفعني لذلك . إنك لاتجعلني أفهم بالضبط ماذا تريد مني ـ إني جميلة ـ والرجال الآخرون يرونني كذلك .»

«أرجوك يا جردا ؛ أنا متعب وأريد فنجاناً من القهوة.»

دفع يدها عنه وذهب الى المائدة وأخذ إبريق القهوة.

وقفت ليجيا مترددة في المدخل ـ فرفع إبريق القهوة بطريقة ساخرة ودعاها لأن تشرب القهوة معه ثم أضاف :

«إلا إذا كنت تفضلين الشاي .»

سألت فجأة :

«ماذا تفعل يا روبرت هل أنت تتخلص مني ؟ ألا تظن أن الشيء المهذب الذي يجب أن تفعله هو أن تخبرني أني أضيع وقتي؟»

كان روبرت متكئاً على المائدة يحرك قهوته فنظر إليها بحدة:

«من الجائز ولكني لا أظن أنك كنت تريدين حبي ياجردا ـ أما العلاقة المجردة فهي لا تعني الكثير ـ إن المرء يتعلم ذلك عندما يتقدم في السن ـ على الأقل أنا تعلمت ذلك.»

ردت قائلة:

«إنك تتكلم كما يحدث في الروايات اللعينة ـ أظن أني أعرف حقيقتك الآن ـ أظن أنك لاتحس وتصحو إلا أمام الأضواء . وعندما تنطفىء ـ تنطفىء أنت أيضاً.»

كانت في عينيها نظرة إحباط جامدة.

«روبرت تشيز ـ العاشق الكبير ؛ عنوان جذاب في الاعلانات أما في الحقيقة فإن النساء لا يعنين شيئاً في رأيك . إنهن جمهور جيد ـ هذا كل مافي الأمر»

وافق على كل ذلك :

«نعم ياجردا هذا كل ماني الأمر وحاولت أن أقول لك ذلك عدة مرات ولكنك لم تستدعي إليّ».

أشارت جردا الى ليجيا :

«هل تعلم ذلك كنلتنا الصغيرة ؟»

قال روبرت :

«أظن أنها تسمع مانقول».

وعندما نظرت إليه ليجيا هز كتفيه وكأنه يقول ـ «هذا أنا» ولكنها لم تكن تعرف أن زيارات جردا للكوخ . كانت بريئة وبدت الغيرة في عينيها.

قطب روبرت جبينه لذلك . فنظرت بعيداً لأنها اكتشفت أنه يستطيع قراءة أفكارها ولم تكن تريد أن يعرف أنها صدقت إيحاءات جردا . هذا سيضايقه وهي لاتحب أن تضايقه . إنه يشعر بالاعتزاز بكوخه وسيشعر بضيق إذا علم أنها ظنت أنه يستعمل الكوخ في علاقاته الغرامية .

قالت جردا وهي تنفض سيكارتها:

«أرجو أن تعني ماقلته من أنك رجل يحب الوحدة. وأرجو أن تتمتع بوحدتك وألا تتمنى الموت عندما تصفر الريح في المدخنة وينثر المطر على النافذة ولاتجد أحداً بجانبك يؤنسك».

ردّ قائلا :

«وأنا أيضا أرجو ذلك».

إتجه إلى باب الشرفة ونظر منه إلى أوراق الشجر المتطايرة.

قالت جردا :

«من أي طينة أنت ؟»

ضحك قائلا :

«أوه، أنا لست بدون شعور ياجردا . قضينا أوقاتاً لطيفة ومرحة معا ولن أنساها، ولكنّ الأمر كان سيختلف لو أردت قلبي . غير أنك قلت أن لاقلب لي . وأنا تعبت من هذه المتع السريعة وأفضل عليها لياليّ الوحيدة والريح التي تهمس في أذني».

أشعل سيكارته وخرج إلى الشرفة ثم نزل السلم وانصرف مستعجلا.

كان اليوم ثقيلا لشعور الانتظار السائد ـ وفي النهاية لم تستطع ليجيا تحمل هذا الجو الثقيل فأخذت معطف المطر ونزلت إلى الحديقة. تحدثت بعض الوقت مع تاتر إلا أن الرجل العجوز كان في غاية الانقباض لمرض السيدة تشيز فتركته وذهبت إلى الجدول المتعرج بأسماكه الملونة. كانت السماء رمادية وحزينة فجلست على حافة الجدول وهي تراقب الأسماك.

فكّرت كم هو محزن ألا تعبر السيدة تشيز ثانية الجسر الحجري لتذهب إلى حديقة الأعشاب التي تحبها، أو تقف بجانب أشجار الليمون وتتذكر ابنها الذي كان يحب قطاف الليمون، ابنها الذي بذر أملها فيه بعد أن أصبح رجلا... وبعد قليل عادت إلى المنزل.

كانت وجبة الغداء التي تناولوها الساعة الثانية غريبة. لأن روبرت لم يكن قد عاد بعد . وفضلت جردا تناول طعامها في غرفتها. لذلك فضلت ليجيا وأفري تناول القهوة بجانب المدفأة في الردهة. شعرت ليجيا شيئاً فشيئاً أن التكلف بينها وبين أفري قد زال.

«هل تريدين مزيداً من القهوة ؟»

وعندما هزت رأسها بالنفي أتى وجلس بجانبها.

«أنا سعيد أنك عدت ياليجيا حتى في هذه الظروف الحزينة».

كانت تبدو في ضوء المدفأة أكثر رقة ـ قالت :

«هل ستشفى جدتك ؟»

هز رأسه بالنفي .

«أمامها أسبوع على الأكثر، لم أخبر روب بذلك».

قالت ليجيا بهدوء:

«أظن أنه عرف ذلك . فعندما يحب الانسان شخصاً آخر بعمق فإن جزءاً من هذا الشخص يكون بداخله . وعندما يبدأ هذا الشخص في الموت يموت أيضاً هذا الجزء الذي بداخله».

همس وهو يتحسس شعرها برقة ثم يسحب يده :

«ياليجيا الصغيرة ـ كيف لك أن تعرفي ذلك ؟»

أجابت :

«عرفت عندما كان أبي سيموت ـ وهو أنني شعور بالوحدة . ولايستطيع أحد أن يساعدك ـ يجب أن يختلي المرء بنفسه لفترة وهذا ما يفعله روبرت الآن. المرء يستجمع شجاعته ليواجه حزنه . إنه نوع من الحج إلى الماضي وإلى أرض الذكرى.

حلق أفري فيها :

«يافتاتي العزيزة ! إنك تتكلمين بلسان الكبار ـ إني لا أتعرف عليك .»

قالت :

«انا لم أتغيرّ»

ولكن الدم صعد الى وجهها فنظرت بعيداً .وأمسك بذقنها وجذب وجهها ناحيته وفحصه جيدا ثم قال:

«لقد كنت مخطئاً، أنت لست ليجيا الصغيرة. أصبحت امرأة فجأة. من الواضح أنك...»

قالت الممرضة :

«أسفة يادكتور ولكن السيدة تشيز استيقظت وهي تطلب رؤية السيدة الصغيرة.»

قال أفري :

«انتظريني هنا سأذهب لحظة لأراها»

راقبتها ليجيا . أفري والممرضة وهما يدخلان الى السيدة تشيز . أخذ قلبها يخفق بعنف وبدت لحظة الانتظار ساعات. أخيراً ظهر أفري في المدخل فذهبت إليه . ودخلا الغرفة الكبيرة المعتمة المعبأة برائحة الأدوية . قال أفري للممرضة:

«يمكنك أن تتركينا قليلاً»

خرجت من الغرفة. فركعت ليجيا بجانب سرير السيدة تشيز . كانت حركة تكريم وانتظار جعلت السيدة تشيز تبتسم ثم تقول:

«اهلا يابنيتي ـ أرى أنك مستعدة للانصات بصبر الى سيدة عجوز متعبة.»

«نعم .»

«وأنت تتعجبين .»

تعلقت يد السيدة العجوز بيد ليجيا ـ ولمعت عيناها السوداوان المتعبتان بشيء من قوة الشخصية والمرح المعهودين لديها ثم قالت :

«عشت طويلا واحتفظت بأسرار كثيرة ولكني سأسمح لنفسي أن أكشف عن أحدها.»

همست ليجيا :

«إليّ أنا .»

هزت السيدة تشيز رأسها بالايجاب وضحكت قليلا ثم نظرت الى أفري الذي كان يقف بجانب السرير بوجهه الأشقر الجاد وقالت له :

«أنت يابني ولد طيب . وفيك كلّ الصفات الطيبة في عائلة تشيز ولكن الحب مسافر غريب يحلّ أينما يشاء في رحلة الحياة. لقد ارتكبت خطأً في شبابي وفضلت ـ بعد روية وتفكير ـ الأمن والاستقرار وتركت الحب يفلت من حياتي كالسراب» وعندما يختفي ذلك النور الحقيقي الغامض . يصبح كل شيء بعد ذلك زائفاً . لذلك إذا شعرت يأفري أني غير حكيمة فيما سأقوله فهل ستؤيدني بالرغم من ذلك .»

«بالطبع يا جدتي .»

ولكن وجهه كان مضطرباً بعصبانية ونظر بعجز إلى ليجيا . ولكنها لم تكن منتبهة له وكانت عيناها مثبتتين على جدته وقد غشيتهما غلالة من الخوف.

قالت السيدة تشيز :

«ليجيا . هل استغربت عندما حضر اليّ روبرت يوم الجمعة الماضي وأخبرني أنه يريدك أن تمثلي معه في مسرحيته الجديدة فلم أعترض على ذلك ـ هل تعجبت.»

اعترفت ليجيا :

«قليلا، ولكنه أخبرني في القطار أنه وعدك أن يهتم بي.»

هزت السيدة تشيز رأسها وبدأت تلتقط أنفاسها بصعوبة وعندما حاول أفري أن يذهب إليها أشارت له أن يبقى في مكانه.

«ما سأقوله لن يستغرق طويلا، ولكني لن أستريح إلاّ عندما أقوله.»

بللت شفتيها وشعرت ليجيا بأصابعها القلقة ـ ثم استمرت :

«نعم وعدني وأنا أعلم أنه سيحافظ على وعده. وعندما سألته عن السبب الذي أراد من أجله أن يصطحبك إلى لندن ، أجاب بأنه لايستطيع أن يراك تخرجين إلى هذا العالم وتحاربين بمفردك. عندما يقول الرجل ذلك هوليس سيئاً أو قاسياً أليس كذلك. وعندما يقول ذلك أظنّ أن هذا يعني أنه يحب.»

ارتفعت أصابع السيدة تشيز وسقطت على الملاءة:

«أفري رجل طيب ياعزيزتي ولكن لديه عمله. عمله هوحبه الأول حبه الأعظم. ولكنك الحب الوحيد بالنسبة الى روبرت .»

سقطت أهداب ليجيا السوداء على عينيها وكأنها أرادت أن تخفي تعبيرها في لحظة الالام تلك وبقيت ساكتة وهي على ركبتيها بجانب السرير وهمست السيدة تشيز:

«ألم تشعري أبداً أنه يحبك ياليجيا ؟ ألم تكن هناك لحظات حاول فيها أن يصل إليك ، أن يحطم الحواجز بينكما. الحواجز التي وضعها هو عندما ألتك في البداية؟ الحواجز التي وضعها أمامه أدم تشيز ووالده؟ ألم تشعري أبداً أنه يمكن أن يكون أرقّ عاشق إذا وجد الفتاة المناسبة التي تقابله في منتصف الطريق، بلا خوف ولا أفكار مسبقة ولاشيء، إلا الحب في قلبها؟ إنك تحبينه أليس كذلك ؟ أحببته في الكوخ ـ وأحببته عندما وافقت على الذهاب معه إلى لندن ، أحببته عندما تركت أفري ، أليس كذلك؟»

قالت برقة وبصوت يكاد يكون غير مسموع:

«نعم .»

ولكن عندما سمعها أفري أطبقت يداه بشدة على العمود عند قدم السرير حتى آلمتاه.

قالت لها السيدة تشيز :

«إذاً اذهبي أليه أخبريه، لاتدعي السعادة تفلت من حياتكما بسبب الكبرياء. يجب أن تفعلي ذلك ياعزيزتي لأنه يشعر أن ليس من حقه أن يحدثك عن الحب.»

«هل قال ذلك ؟»

«نعم .»

قالت ليجيا وهي تشعر أن قلبها وعقلها يطيران من الفرح. لقد انطلق حبها كما كانت تتمنى دائماً كعصفور يطير إلى من يحب. قالت:

«أشكرك لاخباري أشكركما...»

ثم خرجت من الغرفة وبسرعة سحبت معطف المطر من الردهة وانطلقت خارجة من أسوار تشيز. غاصت السيدة تشيز بين الوسائد. وبرغم أنها كانت متعبة لكنها كانت سعيدة. ثم قالت :

«كان يجب أن أقول كل شيء ـ لم يكن باستطاعتي الموت في سلام طالما لم أطمئن إلى راحة روبرت وسلامه.»

سألها أفري :

«وماذا عن راحتي وسلامي أنا؟»

«لديك عملك يابني ـ إنه اهتمامك الأول. بلا شك كنت ستكون زوجاً طيباً ومستقراً لها. ولكن قلبها سيكون متعلقاً دائماً بروبرت ولن تعرف هي السعادة الحقيقية. وكذلك هو لن يعرف السلام أو الراحة طالما بقيا بعيدين. إنها تكمله. إنها راحة النفس التي طلبتها من أجله. أظن أني أعلم الآن أن الرب هو الذي أرسلها.»

وقف أفري وهو ينظر إلى الباب ـ ثم قال متأملاً :

«لقد ركضت كأنها تعرف بالضبط أين ستجده.»

«نعم إنها تعرف ، ستتبع قلبها مباشرة إلى حيث ينتظرها.»

كانت شجرة العليق تزدهر بالثمر في ضوء الغروب الباهت وكان روبرت يقف هناك وهو يدخن ، وينظر إلى المستنقعات وقد تجمعت كل وحدة البراري والسماء المعتمة فيه ـ وطأت ليجيا بعض الفروع الجافة فأحدثت صوت فرقعة ـ استدار روبرت وحلق فيها. بدا وكأنه لا يصدق أنها حقاً هي ، حتى ابتسمت.

«أهلاً ؛ لقد جئت لأنفث السحر تحت شجرتي.»

قال بحدة :

«جدتي ! هل هي بخير ؟»

قالت وقد أتت لتقف بجانبه تحت الشجرة:

«إنها بخير. وكنت أتكلم معها ـ إنّ الجوّ هادئ، هنا.»

راقب الهواء يتخلل شعرها. اهتز عصب في جانب فمه وابتعد قليلا عنها. سألته :

«روبرت ! هل تظن أن الفتاة يجب أن تكون لها كبرياؤها ؟»

نظر إليها نظرة جانبية وابتسم ولكنه بدا وقد تملكته حيرة ثم قال :

«ما الذي تتكلمين عنه ـ أيتها الساحرة السوداء الشعر؟»

«الكبرياء !»

«أي نوع من الكبرياء ـ الكبرياء في مظهرك أم في الأشياء التي تفعلينها ..»

هزت رأسها بالنفي ـ وكان قلبها يخفق بشدة حتى كاد يتوقف.

«روبرت . إذا قلت لك إني أحبك بكل قلبي الذي يكاد يخنقني في هذه اللحظة ـ هل يضايقك أن أكون قد تخليت عن كبريائي؟»

وقف ساكناً تماماً ـ بدون أن يبتسم ـ وقف ينظر أمامه كرجل أعمى.

«روبرت ..»

لمست ذراعه فابتعد بحدة عنها ـ ثم قال :

«أيتها المغفلة الصغيرة ـ إنك لاتعلمين عما تتكلمين . أظن أن جدتي قد أخبرتك ببعض الأشياء فحضرت لتقدمي لي إحسانك.»

«أرجوك ! أرجوك ألا تقول لي ذلك ـ أرجوك ألا تجرحني هكذا ـ إني لا أستطيع تحمل هذا الكلام.»

رد قائلا :

«إن هذا كل ما أستطيعه ـ أن أجرحك . عودي إلى تشيز ـ إلى أفري ـ إنه يساوي خمسين رجلا مثلي وأنت تعلمين ذلك جيداً. كنت تريدينه في القطار، فقد كنت ترددين اسمه وأنت نائمة.»

قالت :

«لأني اضطررت أن أجرحه. كان في منتهى الطيبة معي ولكني رفضت عندما طلب مني أن أتزوجه.»

واجهها روبرت بطوله وجاذبيته الشديدة :

«هل طلبك وأنت رفضته ؟ متى طلبك ؟»

«صباح يوم الجمعة ـ بعدما وافقت على الذهاب معك إلى لندن . رفضته !»

قالت ببساطة :

«كيف أقبله ؟ وأنا أريدك أنت !»

رفع وجهها إليه :

«أنا ؟ أيتها الطفلة المجنونة ـ سأفسد حياتك كما أفسد أبي حياة أمي. إني أفضل أن أضع المحيط بيننا على أن أحوّل حياتك الى جحيم ـ سأفعل ذلك سأنسى كل شيء عن «العاصفة هي ميراثي» وأسافر إلى نيويورك.»

قالت وهي تضحك وتبكي في وقت واحد :

«وتتركني وحيدة أتجول مع فريق الدرجة الثانية وأنام على أسرّة كلها قطع من الفحم؟»

قال بخشونة :

«لا لن تضطري لذلك ، سأجد لك عملا محترماً قبل أن أترك لندن.»

قالت والدموع في عينيها:

«أنا لا أريده ـ أنا أريدك أنت فقط ـ لأمنحك الراحة وهدوء البال ـ ولا يساورني خوف من أشباحك ـ أنت لست فقط ابن ستيفن تشيز ولكنك أيضاً ابن كارملينا . ألا ترى شيئا أبعد من تشابهك بآدم تشيز ؟ ألا ترى أنك تشبه أمك في كل شيء . في عينيك وعظامك ومزاجك المسرحي . أنا لست خائفة من ابن كارملينا ـ إني أحبه.»

كانت الدنيا قد أظلمت والغربان تتجه إلى أوكارها في تشيز والريح تحرك الأعشاب الطويلة. سألها روبرت :

«ما الذي يجعلك تحبينني وقد وجهت إليك اتهامات وجرحتك ؟ ما الذي يجعلك طفلة صغيرة ومجنونة ورقيقة.»

ردت قائلة :

«من الجائز أنه مزاجي المسرحي .»

ألقى بسيكارته المنتهية وفي لحظة ضمها إلى قلبه بقوّة وقال :

«إذا أخذتك فلن تهربي مني أبداً. أنا عنيد ومستبد وأشياء أخرى كثيرة لايكن

ذكرها. وأنا أريدك بكل جارحة في أحشائي . سيجعلك حبي سجينة ـ إنني أستطيع أن أتركك الآن يا ليجيا ـ لكن اذا أصبحت لي فلن أتركك أبدا ـ لذا فعليك أن تقرري الآن ـ اختاري الآن ».

ضحكت وقالت :

«إذا كنت تحبني فأرجو أن تختار نيابة عني . إن كل ما أطلبه هو أن أنعم بأمن سجنك».

تعلقت بعنقه :

«أنا أحتاج لحارس يرعاني ـ تذكر كيف هربت من جورج داونهام ».

قال وهو يقبلها على خدها:

«لا تذكري اسم هذا اللعين ـ لن يتكرر ذلك أؤكد لك . آه يا ليجيا إنني أتأني لأني أريدك ـ سأفعل كل ما أستطيع لاسعادك».

«إنك تسعدني الآن ـ آه يا روبرت ـ كم كنت أتوق أن أقول لك كل هذا ولكن اعتقدت أنك كنت تريد جريا ».

رد روبرت :

«كانت هناك كثيرات مثلها ولم تكن أيّ منهن تعني شيئاً بالنسبة اليّ . كنت أتسلى بهن كلعبة يتسلى بها صبي شقي ولكنه يريد شيئاً آخر لا يعرف ماهو . ثم أتيت أنت وكان يبدو أنك من نصيب آفري ولذلك وكولد شقي مرة أخرى حاولت أن أكسر اللعبة التي لم تكن لي ـ ليجيا».

دفن رأسه في شعرها

«إني أريد أن أتعلم التواضع والسماحة. إني أريد أن أستحقك . أريد أن أشعر أن جدتي كانت محقّة عندما أرسلتك إليّ».

«لو كانت تعلم أنك ستؤذيني لما أرسلتني ـ إنها تعرفك أكثر مني رغم أني أحبك لدرجة الجنون».

ضحك وقال :

«ومنذ متى وأنت مجنونة بي يا ساحرتي ؟»

«منذ عدت بيانكر فتألمت من أجله ـ ثم في رحلة توبي عندما تكلمت عن العرس مع آفري . حاولت ألا أتألم كما لو كان أحدهم قد ضربني».

«وأنا قلتها لأن الغيرة أكلتني من الطريقة التي وضع بها آفري ذراعه حولك ـ عزفت على البيانو وقلت لك أن تتزوجيه لأنه أفضل مني بكثير».

ابتعد عنها قليلا وقال :

«لدي الشجاعة في هذه اللحظة أن أتركك تذهبين».

قالت وقد شعرت بالخوف فجأة أن يتركها:

«لا !»

والتصقت به وهي ترتعش وهمست:

«لاتطردني ـ لاتحكم علينا بالوحدة ـ أرجوك !»

كان استعطافها أكثر مما يحتمل فانهارت مقاومته تماماً واحتضنها في سكون تحت شجرة الغلّيق التي حركت اغصانها في الهواء المنعش.

وقال روبرت أخيراً :

«إنه القدر ! لو كنت وجدت الشجاعة وتركتك لما استطاع كل منا أن ينسى الآخر ـ كان وجهك الضاحك سيطاردني دائماً وكنت سأموت كل ليلة وأنا أتمنى احتضانك . لأني لست رجلا يحب الوحدة».

نظر إلى وجهها ثم قبلها برفق وسارا بعيداً عن الشجرة بين الأعشاب . سيعود إلى تشيز وسيواجه روبرت حزنه ولكنه لن يواجهه بمفرده .ليس الآن .

تعلقت أصابعها بأصابعه وطار الكروان في السماء، وحل المساء على المستنقعات.